
قصة بدأها الرئيس جمال عبد الناصر - وهو
طالب بالمدارس الثانوية عن معركة رشيد ١٨٠٧م
في سبيل الحرية
عبد الرحيم عجاج

عبد يوسف المويلحي

130 X 188

الكتاب الفضي

سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة

في الخامس من كل شهر

رئيس التحرير : يوسف السباعي

المدير العام : حسن ايراني

العدد ٢٣

أكتوبر ١٩٥٩ – ربيع ثان ١٣٧٩ – تشرين أول ١٩٥٩

التحرير والادارة : ٤٧ شارع نجيب الريحاني – القاهرة
ص . ب ٣٢٨ – القاهرة ت ٤٨٦٦٩

الاشتراكات : ١٠٠ قرش عن سنة (١٢ عددا) في داخل اقليم مصر والسودان وما يعادل ١٢٠ قرشا عن سنة في الأقطار العربية .

التوزيع : في داخل اقليم مصر « الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع » ٤٧ شارع نجيب الريحاني – **القاهرة** وفي الاقطار العربية : الشركة العربية للتوزيع ببيروت ومكتبة المثنى (قاسم الرجب) ببغداد . وشركة الصحافة السعودية بجدة

الكتاب الفضي

عيسى يوسف بلاطة



سلسلة شهرية تصدر عن نادي القصة

الناشر : الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع

أكتوبر ١٩٥٩



عبد الرحيم عجاج

في سبيل الحرية

تكملة القصة
التي بدأها السيد الرئيس جمال عبد الناصر

فازت بالجائزة الأولى في المسابقة التي أجراها
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

إهداء

إلى من آمنت سريرته بقصة الكفاح ...
فبدأ يكتبها بقلمه أسطورة ...
ثم أتمها بذاته .. تاريخاً ...
إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر ...
إلى من أحبته قلوبنا ...
أهدى وحى ما بدأ .. وما أتم ...

نجاح





كلمـــة

كمال الدين حسين

وزير التربيـة والتعليم المركزى

المصادر التى يعتمد عليها الاديب فى انشاء أدبه هى الاساطير والتاريخ بماضيه وحاضره ثم الخيال والتجارب الشخصية .

وحوادث التاريخ هى التراث البشرى الذى ترويه الاجيـال لتتـكشف أمامها طـريق الانسـانية . والقصص التى تعتمـد على المصـادر التاريخية تعالج لنا القضـايا الانسانية من خلال نظراتها الى حقائق التاريخ ، فتبرز لنـا أهميتها وتجعلها جزءا من تجاربنا الذاتية كى يعظم أثرها فى توجيه سلوكنا .

ويقوم هذا الكتاب على نص أدبى هو وثيقة تاريخية كبرى .. فاننا وقد عاصرنا ميـلاد ثورة ذهبت بالطاغين وبالمظالم وأعادت كرامة الانسان لكل فرد من أبناء الوطن وفتحت آفاقا كانت من قبل خيالا نكتفى بالتطلع الى وميض برقه ، قد أصبح من واجب التاريخ علينا أن نتتبع منشأ هذه الثورة وكيف ثبتت أصـولها فى نفس راعيها وقائدها .

وثيقة قدمها التاريخ ..
قصة من عشر صفحات ..
كانت تريد أن تطول .. غير أنها توقفت ..
كانت تريد أن تستلهم التاريخ .. ولكنها أصبحت تاريخا ..
أصبحت وثيقة فى أيدى المؤرخين تكشف لهم عن حياة البطل الكبير ، كيف كان يبحث فى صباه عن معلم يستكشف منه أنوار الحرية التى يريد لها أن تسود الارض ..

ولما مر التاريخ من أمامه وقد توغل قرنا وربع قرن استحلفه أن أمكث . انى رأيت قومى . رأيتهم برشيد . عرفتهم . هذه نار قلوبهم تضىء الطريق . أيها التاريخ دعنى أقتبس من نورهم وأدفىء روحى بجذوة من قلوبهم ..

ولما اذن له التاريخ .. اقتبس وأتى بالجذوة . فكان من قبسه بداية قصة . وكان من جذوته نار راحت تنمو وتنير . كانت نار التحرير . التى ذهبت بالطاغين وبالمظالم ، وأعادت كرامة الانسان لكل فرد من أبناء الوطن .

حادث فريد يعرف الادباء لم كانت القصة . وفيم استيحاء التاريخ . انه البناء . بناء الفرد وبناء الامة . انه التطور الكبير . انه الادب دعوة الحرية ..

وثيقة صغيرة . ترينا حقيقة خطيرة . تطلعنا على أمر لا نحفل به فى الادب ، وتتلقاه كأنه النظريات التى لا تغنى فى الفن شيئا . تعرفنا عنصر الصدق فى الادب . كيف أنه ضرورة للفن

الاصيل ، لنفس الخالق البانى الذى يريد أن يطور الحياة .

دخلت هذه القصــة من باب الادب الخــالد لانها دعوة الى الحرية . دعوة صادقة حقيقية . لم نكتشفها من قبل لان التاريخ هو الذى كشف لنا عن صدق عنصرها .

واذا كان علينا الا نفرق بين الاديب وأدبه . فان الاديب الصغير حين انصرف عن اتمام قصته ، لم يفعل ذلك الا حين شعر أن ذاته قد صارت أدبا ، وأنه قد صار بفكره وجسمه وسلوكه دعــوة صادقة الى الحرية .

وجاء المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية يريد أن يكشف للأدباء عن مهمة الادب الحقيقية فى تحرير البشرية من كل طاغ يبغى انتزاع الحق من أهله ، ومن كل فكرة خبيثة توشك أن تبث سما فى العقــول ، يريد من الادباء أن يكشفوا للعالم عن أسرار الوجود وانطباعات الكون فى نفوس الاحرار . فكان من أبدع ما قدم المجلس قصة بدأها فى صباه الرئيس المحبوب جمال عبد الناصر ، فطلب المجلس من الادباء أن يسابقوا لاتمامها .

وان المجلس ليرجو أن تكون هذه البداية التى كتبها الرئيس قد فتحت الباب لكل أديب يريد أن يجعل من كتابته سبيلا الى الحرية .



معركة رشيد

بقلم

محمد سعيد العريان

فى مارس سنة ١٨٠٧ أبحرت الى مصر حملة بريطانية ، بقيادة الجنرال فريزر للاستيلاء على مصر ، فوصلت الى ميناء الاسكندرية فى ١٦ مارس . وأطلقت مدافعها على أبراج المدينة ، ثم نزلت على الساحل . وكان حاكم الاسكندرية من قبل العثمانيين هو أمين أغا ، فسلمهم المدينة خيانة ، ولم يكن يخطر ببال الشعب السكندرى أن يقدم الحاكم التركى على هذه الخيانة ، ومن ثمة لم تجد مقاومتهم شيئا ، ولكنهم لم يستسلموا ، وظلوا يكيدون للعدو فى البر والبحر ، يتخطفون جنده ، ويحرقون مراكبه .

ولما تم للانجليز الاستيلاء على الاسكندرية ، اتجهوا نحو رشيد ، ليملكوها فيملكوا بها مفتاح النيل ، لينحدروا فيه بمراكبهم الى حيث شاءوا من أرض مصر ، ففى يوم ٢٩ مارس تحرك الجيش الانجليزى من الاسكندرية الى رشيد ، بقيادة « ويكوب » فاستولوا على مرتفعات أبى مندور المشرفة على رشيد ، ووجهوا اليها مدافعهم وضربوا حصن « أبى مندور » ، وتأهبوا

لاقتحام المدينة .

وكانت أنباء الحملة قد وردت الى رشيد ، منذ نزل الانجليز على ساحل الاسكندرية ، فاستعد أهل رشيد للمقاومة ، وتحالفوا على الدفاع حتى الموت عن مدينتهم ، لا يدخلها عليهم أجنبى وفيهم عرق ينبض ، واجتمع شيوخ المدينة وأعيانها ليرسموا خطتهم ، ولم يكن فى المدينة من جند الحكومة غير ٧٠٠ ولكن ذلك لم يفت فى أعضاد الاهالى وأصروا على المقاومة الى آخر نفس .

فلما أقبل العدو ، كان كل من فى المدينة متهيئا لواجبه ، حتى الشيوخ والنساء والصبيان ، وكانت الخطة أن يتظاهر الاهالى بالانسحاب وتسليم المدينة للغزاة ، حتى اذا دخلوها آمنين مطمئنين ، انقضوا عليهم فأذاقوهم وبال أمرهم . وهكذا فعلوا ، فأبحرت المراكب من شاطىء رشيد متجهة نحو الشاطىء الشرقى، ليتوهم العدو حين يراها على بعد ، أن أهالى المدينة قد هجروها ، فلما اطمأن العدو الى هذا الظن ، زحف على المدينة فى ٣١مارس ، فلم يجد مقاومة ولم يستقبله أحد بما يكره ، فازداد العدو اطمئنانا وأمنا ، وتفرق جنده فى الدروب والأزقة ينشدون الراحة فى ظلال البيوت بعد تعب السير ، ولكنهم لم يكادوا يلقون أثقالهم ويستسلمون للراحة ، حتى انصب عليهم البلاء من النوافذ وأسطح المنازل ، وبرز لهم الشباب من وراء الابواب المقفلة يحصد أرواحهم أو يتخطفهم أسرى ، وكانت مفاجأة لم يحسب

لها العدو حسابا ، وحاقت الهزيمة بالجيش الانجليزى ، وقتل قائده ويكوب ، وسقط أكثر من ربع القوة قتلى أو جرحى أو أسرى ، وفر الباقون بأرواحهم يطلبون النجاة فى تيه الصحراء.

وبلغت أنباء الهزيمة القيادة العامة فى الاسكندرية ، فجردت حملة أخرى على رشيد ، زحفت اليها فى ٣ ابريل ، فاحتلت مرتفعات أبى مندور ، والحماد ، وضربت حصارا على المدينة ، ولكنها لم تجرؤ على اقتحامها . واستمر هذا الحصار أياما ، ثم بدأت المدفعية الانجليزية تصب قذائفها على رشيد ، لتهدم دورها على أهلها ، انتقاما منهم ، ولكن أهل رشيد لم يستسلموا ، ولم يضعفوا ، وصبروا على الحصار والضرب ، والفدائيون من شبابهم يتسللون الى معسكر العدو يكيدون له ، ويتخطفون جنده ، ويضرمون النار فى خيامه ، ويقطعون عنه الزاد والمئونة ، ويدبرون الوسيلة فى الوقت نفسه للايقاع به جملة واحدة ، حتى يجلو عنهم منهزما ويفك الحصار عن رشيد .

وكانت الرسل والرسائل تتردد بين أهل رشيد وأهالى البلاد المجاورة ، وذهب منهم رسل الى القاهرة يستنهضون همة الوالى للدفاع عن وطنهم ، ولكن الوالى كان مشغولا فى ذلك الوقت بالتمكين لعرشه ، فلما بلغه نبأ قدوم الانجليز ، فكر فى الهرب الى الشام ، لينجو بنفسه ، ولكن المتطوعين من شباب القاهرة خفوا للنجدة كما خف للنجدة محاربون من كل البلاد المجاورة ، واجتمع من

هؤلاء وأولئك جيش كبير ، فهجموا على قوات العدو فى «الحماد» ونشبت معركة حامية ، مات فيها نصف جند العدو ووقع النصف الآخر أسرى فاضطرت القوات المحاصرة لرشيد الى فك الحصار عن المدينة ، لتنجو بنفسها قبل أن تحل بها الكارثة .

وكان انتصار أهل رشيد فى معركة ١٣ مارس ، ثم ثباتهم على الحصار حتى جلا العدو مكرها عن مدينتهم ، سببا لانتشار روح الحماسة والقوة فى الشعب ، فتكتبت الكتائب فى كل مكان لحرب الانجليز ، كما كانت هزيمة الانجليز فى المعركتين ، سببا لضعفهم وانحلال عزيمتهم ، فعرضوا الصلح على المصريين ، ولم يلبثوا أن جلوا عن البلاد مجللين بالخزى والعار ، وكان تمام الجلاء فى ١٩ سبتمبر ١٨٠٧ .

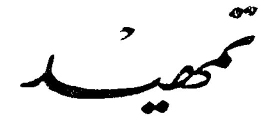
محمد سعيد العريان

جمال عبد الناصر

في سبيل الحرية

قصة بدأها السيد الرئيس جمال عبد الناصر
وهو طالب بالمدارس الثانوية عن معركة رشيد سنة ١٨٠٧





يوم لاينسى ...

... هذا اليوم العابس أوله ، الباسم آخره ، فى عام ١٨٠٧ قال الانجليز هذه مصر استقلت عن الترك وحكمت نفسها ، وهى على هذا لقمة سائغة تمضغ وتبتلع . اذ ماذا تستطيع ملايينهم الثلاثة ان تصنع امام أسطول بريطانيا وجيشها المدرب العظيم ومدافعها وقنابلها؟ » قال الانجليز ، هذه هى الفرصة قد سنحت لتحقيق حلم قديم ، وأمل طالما جاش بنفوس الانجليز القدماء .. وما هى الا أسابيع حتى رستعلى شاطىء الاسكندرية أساطيلهم .. ودوت القذيفة الاولى من قذائف الجيش البريطانى .. وهم يظنون أنها مسمار كبير فى نعش الحرية والكرامة المصرية وعن قليل سوف تكفن هذه الحرية وتوسد فى قبرها ويهال عليها التراب .

أصبحت الاسكندرية ذات الماضى الحافل تتقد نارا وتشتعل ، نارا رأى المصريون على ضوئها أفظع صورالظلم والجشعوالطغيان .. هام أهل الاسكندرية على وجوههم وخرجوا بأطفالهم ونسائهم .. لايعرفون مصيرهم وبيوتهم من ورائهم تعصف بهم عواصفالجحيم .. نار فى كل مكان .. نار فى المدينة . ونار فى القلوب .

والانجليز سعداء بالنصر الذى فازوا به .. ونزلت الجيوش الانجليزية الى المدينة تزهو بالنصر ، وسارت حتى وصلت الى رشيد ، وكانت اذ ذاك بلدة تشعر بقوميتها ، فهبت كرجل واحد ، ولم تنتظر أمر الحاكم بل دبرت أمرها بنفسها .. فقسمت رجالها قسمين : قسما ذهب الى الحماد يستدرج الانجليز الى المدينة ، وقسما بقى فى الدور لايشعر به أحد هناك .

وعندما اقتحمت فلول الاعداء المدينة صب عليهم الموت من تلك النوافذ المغلقة .



الفصل الأول

كانت الليلة حارة جافة من ليالى أوائل سبتمبر وكان الليل قد ولى ولم يبق على طلوع الفجر غير ساعات ، وكان الهلال قد احتجب منذ ساعات وراء حجب كثيفة من الغيوم المتلبدة فى جهة الغرب ، ولم يسمع أى حس ولا صوت فى الحماد التى وقفت عندها الحملة الانجليزية تتربص ، ومن جهة الشمال كانت تقوم معسكرات الجنرال فريزر ، وكانت خطوات الحراس المتزنة تقطع السكون التام المستولى على تلك الجبهة ..

أما فى الجنوب فقد أقام مراد باشا البطل ، هو ورجاله المخلصون غير المنظمين الذين حاولوا أن يستفزوا العدو الى القتال المباشر . ولكن محاولاتهم ذهبت هباء .. وفى تلك البقعة ساد السكون أيضا كما ساد فى البقعة الاخرى ، واستولى التعب على الحراس فناموا فى مراكزهم .. كان الجميع يغطون فى سبات عميق تلك الليلة . وكان مراد باشا فى خيمته الخاصة مستغرقا فى النوم من شدة التعب بعد سهر متواصل دام ليالى طويلة . كما نام حراسه الى جانبه .

وفى ذلك السكون المخيم بدأت حركة هادئة فى خيام الجنرال فريزر . وبدأت أمواج الاجسام البشرية تتحرك ببطء فى سكون

الليل البهيم ، وكانوا يقصدون خيمة مراد باشا ، فكانوا لا يتكلمون الا همسا ، وهم يتقــدمون بسرعة وهدوء ، فى سكون الفجــر وصمته . فكان سيرهم شبيها بزحف الافاعى الهائلة .

وقال قائل منهم بهمس : اسمع يا سير ولنجتن دع الكابتن برسى يفاجىء الحراس وادخل انت مباشرة خيمة مراد باشا فاقتل حراسه واقبض عليه .

وما أن انتهى الهمس حتى جد سير ولنجتن السير على رأس ستمائة من رجاله المختارين وكان كل منهم يلبس قميصــه حتى يمكنهم أن يميزوا بعضهم بعضا حينما يختلطون بالاعداء فى أثناء المعركة ، ولم يكن يفصل بين معسكرات فريزر ومراد باشا سوى نحو ميل من الارض السهلة المنبسطة ، وبينما كان القوم يتآمرون ويتوعدون ويدبرون الخطط . كان أهــل الحماد مســتغرقين فى نوم عميق ..

وكان سير ولنجتن وجمعه المتحرك قد قطعوا نصف المســافة ، وكان من الصعب جدا تمييز القمصان البيضاء لشدة الظلام المخيم ، حتى ليخيل الى الرائى أنهم أشباح ، ولم يبق أمامهم سوى نصف ميل أو أقل حتى يصلوا بزحفهم . هذا وقوم مراد باشا لا يزالون يغطون فى نومهم .. وفى تلك اللحظة تقدم شخص من الحــراس فأيقظهم . وامتدت يده القوية اليهم حارســا تلو حارس فهزتهم هزا عنيفا ، وهو يصيح وسط الظلام : هلموا ، استيقظوا ، فالعدو مقبل عليكم ليأخذكم على غرة ويفتك بكم وأنتم نيام .

وقبل أن يتمكن الحرس من الاستيقاظ تماما ، كانت اليد نفسها قد وصلت الى الحرس الخاص لمراد باشا وهزته بشدة وعنف . وعلا الصوت ذاته وهو يقول : استيقظوا ، فقد وصل الانجليز اليكم . وفى خيمة مراد باشا بدا نور ضئيل ، وكان الباشا مستلقيا على الارض مدججا بالسلاح كامل العدة ، فلما طرق الصوت سمعه وبدأت الحركة ، أفاق من نومه فى الوقت المناسب ، ووثب واقفا فلم يجد أحدا معه فى الغرفة ، ولكنه لمح ظلا مبهما لرجل طويل القامة يبرح الخيمة بسرعة زائدة ، فظن أنه فى حلم ، وأن ذلك المنظر لم يكن الا كابوسا مخيفا ، ولكنه وجد المعسكر قد عادت اليه الحياة .. وتجاوب نداء القتال ، وصلصلة السيوف وصهيل الخيل وأوامر الضباط تلقى فى كل جهة .. ولكنه وجد عبارات مكتوبة على الخيمة ، هذا نصها : « هجوم ليلى .. فان ستمائة رجل يزحفون عليكم ، وبينكم وبينهم الآن أقل من نصف ميل » ..

وكان السير ولنجتن قد أصبح على بعد ربع ميل ، فسمع بأذنيه هذه الاصوات كلها وشعر بحركة الجند وهم يتأهبون . فعلم أن تلك المفاجأة التى دبرت بروية وبمنتهى التكتم قد فشلت ، واذن فليس عليه الا أن يرجع خائبا الى معسكره ، اذ لم يعد فى وسعه اقتحام معسكر عدوه ، لان ستمائة جندى لا يكفون لخوض موقعة حاسمة ، ولان جنود مراد باشا يحاربون ببسالة واقدام ، وارتدت الجنود كالامواج الى الخلف تجر أذيال الخيبة والفشل .

ولما وصل سير ولنجتن الى المعسكر ثانيا ، اضطر أن يعترف أمام رئيس الحملة الجنرال فريزر بفشل المفاجأة التى كانت قد أعدت معداتها بنظام دقيق .

قال سير ولنجتن ، وقد بدا الغضب والتذمر على وجهه : « لقد كانت الخيام كلها فى الحماد تتحرك فلم أجرؤ على الهجوم، لاننا كنا نعتمد فى الفوز على المفاجأة » . فاحتج فريزر وأخذ يصخب ، ويسب ويلعن ، وقال :

ـ ومن الذى أفشى لهم الخبر ؟..

فزأر ولنجتن كالاسد الغاضب وقال : لابد أن الشيطان المقنع هو الذى أنذرهم .

وفى الناحية الاخرى من البلدة ، كان الرجل المدعو « المقنع » يتأهب للاختفاء بهدوء كما ظهر .

الفصل الثاني

فى اليوم التالى وقف فريزر داخل خيمته ، هو والسير ولنجتن وأركان حرب الحملة وهو يهدر ويصخب كالبركان الثائر ، وكان يقطع الخيمة ذهابا وجيئة ؛ ولم يجرؤ واحد على مفاتحته فى الكلام حتى تكلم وحده فقال : لقد فشلنا فى ست معارك الآن مع مراد باشا ويظهر أنه يتلقى انذارات فى الوقت المناسب ..

فقال السير ولنجتن : لقد كانت كلها مدبرة تدبيرا محكما ، وكان رجالنا يسيرون صامتين كالاشباح فى ليل بهيم شديد الظلام ، ولكن فى كل مرة كان هناك من ينبئه بقدومنا اذ كنا نجد خيامه كلها فى حركة ، فكنا نضطر الى التقهقر ، فمن غير أبليس أعطاه الانذار ؟..

ــ جاسوس أمهر منك وأشد حيطة !..

فصاح أحد القواد :

ــ اننى أجزم بأن هناك عاملا خفيا يحرس حياة ذلك الرجل . ان قومه ــ كما أخبرنا أحد جواسيسنا ــ يتحدثون عن رجل طويل القامة عريض المنكبين ، وبعضهم يدعوه بالمقنع وهم يظنون أن القوة التى تحميه قوة علوية.. ولكن يظهر أن أحدا لم يره ، فكأنه حقا رسول من أبليس نفسه .

ولم يكد الرجل ينتهى من قوله حتى ساد الغرفة صمت رهيب ، فاصفرت الوجوه واضطربت الشفاه ، فرسم سير ولنجتن نفسه ، علامة الصليب .. آن أولئك الرجال الذين كانوا يتحدثون بذلاقة وعنف ، ويطربهم قتل الابرياء ، غلبتهم الخرافات على أمرهم .. هؤلاء الذين يطربهم تعذيب الناس ، ذعروا وملـكهم الخوف ، فرددت شفاههم المضطربة صلوات كاذبة طلبا للرحمة من الله الذى كانوا يعصونه كل يوم بأفعالهم .

وحين عاد فريزر الى الكلام كان خافت الصوت فقال : « سواء أكان الذى أنذرهم ابليس أم غيره ، فهذا لا يهمنا ، انما الذى يهمنا هو أن ننفذ أوامر ملكنا ونتم الاستيلاء على مصر » .. وصمت قليلا ثم قال : « ليس ينقصنا الا أن يكون لنا داخل المدينة جواسيس مهرة ، لكى يعرفوا كل الخطط التى تدبر » .

قال ذلك ونظر نظرة احتقار الى الموجودين . فأجابه السير ولنجتن ، بأن الجاسوس ٥٦٦ قد أرسل اليوم اشارة يقول فيها : أن رشيد ضعيفة جدا ، ويمكن الاستيلاء عليها ، اذ أن الابطاء يمكنهم من جمع صفوفهم .. وقد وصل الى خبر آخر ، وهو أن محمد على باشا قد صمم على الهرب الى سورية ، بعد أن رأى ذلك الانتصار الباهر الذى أحرزناه فى الاسكندرية ودمنهور ، فهو الآن يحارب المماليك فى الصعيد .. اضف الى ذلك أنه لم يفكر فى ارسال عدد من الجيش الى رشيد . وانى متعجب لهؤلاء القوم

الذين يقاومون جيشا كبيرا وهم ضعفاء جدا اذ لبس لديهم ذخيرة ولا سلاح .

عند ذلك ظهر الابتسام على وجهه وقال :

ـ هذه أخبار سارة جدا ، وعلى كل حال سوف ننتهى فى مدة قصيرة من هؤلاء القوم وبعدها تصير مصر ، من أولها الى آخرها ، تابعة للتاج البريطانى .

وعند ذلك وقف الجميع اجلالا للتاج البريطانى .



الفصل الثالث

جلس محسن على كرسى منخفض ، وغطى وجهه بيديه ، وجلست أمه أمامه ، وقد لفت رقبتها بشالها من البرد ، وأخذ محسن يفكر تفكيرا عميقا ، حتى أنه نسى أنه جالس مع أمه .. وراح يتصور الموقف ، فقد كان هذا اليوم محددا لحفلة عرسه ، ولكن البلدة أخذت بقدوم العدو اليها ، فكان من جراء ذلك تأجيل العرس الى ما بعد الموقعة .. لقد كانت وداد وهى من علية القوم وابنة أحد أشراف البلدة ، ذات عينين سوداوين ناعستين وشعر مسترسل على جبينها ووجه مثل البدر وسط السحاب .. أخذت هذه الصورة الجميلة تتراءى لمحسن وتسيطر على عقله وهو جالس فى الشرفة مع والدته .. وراحت الحوادث الماضية تكر أمامه ، فقد كان ، بعكس أخيه ابراهيم ، خاملا لامكانة له فى القرية .. كان جالسا ذات يوم فى مزرعة فى الطرف الشرقى للمدينة يغنى أغنية شعبية ، فاستولى عليه النوم ، ولكنه قام فزعا على صوت استغاثة ونباح كلب ، فوجد فتاة تجرى ويتبعها كلب ضخم الجسم ، فما كان منه الا أن هجم على ذلك الكلب وضربه بعصاه حتى جعله يفر من أمام هذه الفتاة الحسناء ، وعند ذلك شكرته الفتاة ، وعرفته أنه الآن فى مزرعة أحمد بك عاصم والدها ،

وعند ذلك تآلفت روحاهما وصار يقابلها كثيرا فى تلك المزرعة بدون علم والدها ، وكان لتلك الفتاة ابن عم يدعى « حسن » مغرم بها ، وطالما عرض عليها قلبه فكانت ترفضه باباء وشمم . وقد أقسم ذلك الشاب أنه سينتقم منها فى يوم من الايام . ورأيه خروجها كل يوم فى وقت الغروب وتوجهها الى الحقل منفردة بدون علم أحد من أهل المنزل ، وذات يوم اقتفى أثرها فوجدها تتلاقى مع محسن بجانب الغدير وعلى حين غرة خرج من مخبئه . وفاجأهما معا . ونظر الى محسن نظرة احتقار وقال له : أيها السافل الدنىء . ماذا تفعل فى تلك المزرعة .

فقالت وداد :

ــ انه فى هذه الارض بدعوة منى .

ــ لا عهد لى بأن الرجال يحضرون بدعوة النساء .. ما هذا الا لص مجرم .. ولكن ما بالك تدافعين عنه !

ولم يخف ما كان عليه من حنق شديد ، ولكن محسن نظر والضحكة الهازئة لا تفارق فمه . كما لم تفارقه نظرة الاحتقار .

عند ذلك تركهما حسن وذهب يعدو نحو المنزل ، فقالت وداد لمحسن :

ــ بالله عليك اذهب . فانه لا يلبث أن يرجع مع رجال المزرعة فيمسوك بضرر ..

واستجاب محسن لنصيحتها ومضى الى منزله ، وفى اليوم التالى ذهب هو ووالده الى والد الفتاة وخطبها منه ، وحدد العرس فى

هذا اليوم ، ولـــكن الاحتفال عطل بمناسبة هجوم العـــدو لاحتلال رشيد .

أفاق محسن من تأملاته على صـــوت والده يقـــول له : فيم تفكر ؟.. لقد جند كل شبان البلدة ليذودوا عن نسائهم وأطفالهم ، فما بالك جالسا فى المنزل ولم تخرج لتدافع عن بلدك مع المدافعين عنها ؟.. هل ستبقى طول حياتك ..

فقاطعته زوجته قائلة : لقد خرج ابراهيم وتجند فليبق محسن معى فى المنزل .. انى لا أستطيع ذلك .. اذ ماذا أصنع بعد ولدى .. وهل يلذ لى العيش فى الحياة .. لقد تجرد قلبك من محبتهما فتريد أن توردهما موارد التهلكة .

ــ لا تظنى ذلك أيتها الزوجة العزيزة ، فاننى لست أقل محبة لهما منك ، بل أنا أكثر منك وطنية .. أتفضلين حياة ابنك وموتنا نحن فى ذل الاسر ورق العبودية ، أم موته وحياتنا فى نعيم الحرية ؟..

وصمت فجأة لان السكون الذى كان مخيما على المدينة ، قطعته أصوات أغنية شعبية وطنية وهتافات عالية .

حدث كل هذا ومحسن لم يتحرك من مكانه ، فقد كان لا يأبه لاحد فى الوجود ، وعاش طول حياته خامل الذكر ، فما الذى يجعله الآن يقوم ويتحمل كل هذه الاهوال .. لقد نظر الى والده وهو يبتسم تلك الابتسامة الساخرة المستهترة التى اشتهر بها فى البلدة ، فما كان من والده الا أن خرج من المنزل وهـــو يتمتم بكلمات تدل على الغضب والتذمر .



الفصل الرابع

جلس ابراهيم مع أمه فى الصباح ، اذ كان يقوم بمهمة فى المدينة ، فسألته أمه قائلة : هل رأيت أخاك محسن ؟

فأجاب قائلا : لا .. هل رأيته أنت ؟

أجابت : رأيته لحظة واحدة .

ــ وماذا قال ؟

انك تعرف محسن ، فانه أبدى اعجابه بشجاعة المتطوعين فى شىء من الدعابة وقبل أن يبدى ابراهيم استياءه عادت الام الى الكلام فقالت :

ــ لا تلم محسن ، فهو كما خلقه الله .. انه لا يبالى شيئا .

ــ انه لا يعنى الا بملذاته وشهواته ، لقد سمعت انه كان بالامس مع عدد من الماجنين يضحكون ولا يأبهون لتلك المحنة التى يجتازها البلد .

وقام الشاب ليذهب الى عمله وكان ابراهيم من الشباب المتحمسين الذين ذهبوا الى القتال ليمحوا العار عن الوطن .

ومدت الام يدها نحو ابنها المفضل ، فجاءها ثانية وجلس عند قدميها وقبل يديها فقالت :

ــ ارجوك يا ولدى الا تقدم على عمل من أعمال الطيش ، ولا تتصرف تصرفا تندم عليه حين لا ينفع الندم .

— لا تخافى يا والدتى ، فقد جاءتنا وعود بالمساعدة .. اننى حذر كالثعلب ، ولكن لن أثنى ركبتى للقوة الغاشمة .. اننى أقاتل عصابة السفاحين الذين انتهكوا حرمتنا وداسوا حريتنا ، فان الواجب على هو أن أخدم بلادى وأبوى .

ثم قبل أمه وغادر المنزل مسرعا ، ولو استطاعت لاوقفته ، لان الخوف استولى عليها .

الفصل الخامس

لم يكن الجاسوس ٥٦٦ سوى قطان باشا المستوطن برشيد ؛ كان قطان باشا من أهل أرمنيا ، وعندما فقدت أرمنيا استقلالها حضر الى مصر ، وتجنس بالجنسية المصرية واعتنق دين الاسلام.. ولكنه كان من أكبر المرابين فى المدينة فكان يخرج الاموال بفوائد فادحة حتى كرهه الناس ، ولذلك انعزل عنهم ، وعاش فى مزرعة فى الطرف الشرقى من البلدة ، وشيد لنفسه هناك قصرا كان يسكنه هو وابنته ..

كانت تلك الفتاة المسكينة لا تخرج من القصر ، وقد فقدت عطف أمها منذ كانت فى السابعة من العمر ، وهى الآن فى الثامنة عشرة

حدث مرة أن احتاج طاهر بك عمدة البلدة الى نقود لكى يسدد ما عليه من الدين الذى كان غارقا فيه الى أذنيه ، فلم يجد أحدا يلتجىء اليه غير قطان باشا الذى عرض عليه المال بفائدة قليلة ، وعندما حان وقت الدفع لم يجد طاهر بك ما يدفعه ، فذهب الى دائنه يستمهله فأعطاه مدة أسبوع يدفع بعدها ما عليه من الدين .

وردت على قطان باشا اشارة من الحملة ، انه لابد من وجود شخص فى منزل العمدة لكى يحضر لهم الاخبار والمؤامرات والخطط التى يعدها مراد باشا ، لان كل هذه الاشياء فى عهدة ابراهيم ابن العمدة .

ودبر قطان باشا خطته ، اذ ، ن أن يستولى الانجليز على مصر ، لكى تنال آرمنيا استقلالها على أيديهم .. هكذا كان الاتفاق بين قطان باشا والانجليز .

وحينما حان الوقت لدفع الدين الذى على طاهر بك ، ذهب الى قطان باشا ليستمهله فقال له قطان باشا :

ــ والله يا أخى انى محتاج الى المال . ولذلك لا أستطيع امهالك أكثر من ذلك ، وأملى أن تدفع دينك حتى لا أضطر الى نزع ملكية الارض وبيعها .

عند ذلك اصفر وجه طاهر بك وآخذ يرجو المرابى أن يمهله بعض الوقت ، ولكنه كان يضرب فى حديد بارد . وأخيرا انسابت الدموع من عينى الشيخ المهدم الذى وجد الفضيحة أمامه بسحبها الداكنة ، فقال له قطان باشا :

ــ اننى اقترح عليك اقتراحا أنت فيه الرابح ، فان قبلته كان بها والا فسأبيع الارض بالمزاد اليوم أو غدا ، واستولى على الدار وأخرجكم منها .

فظهر البشر على وجه الشيخ المهدم وقال :

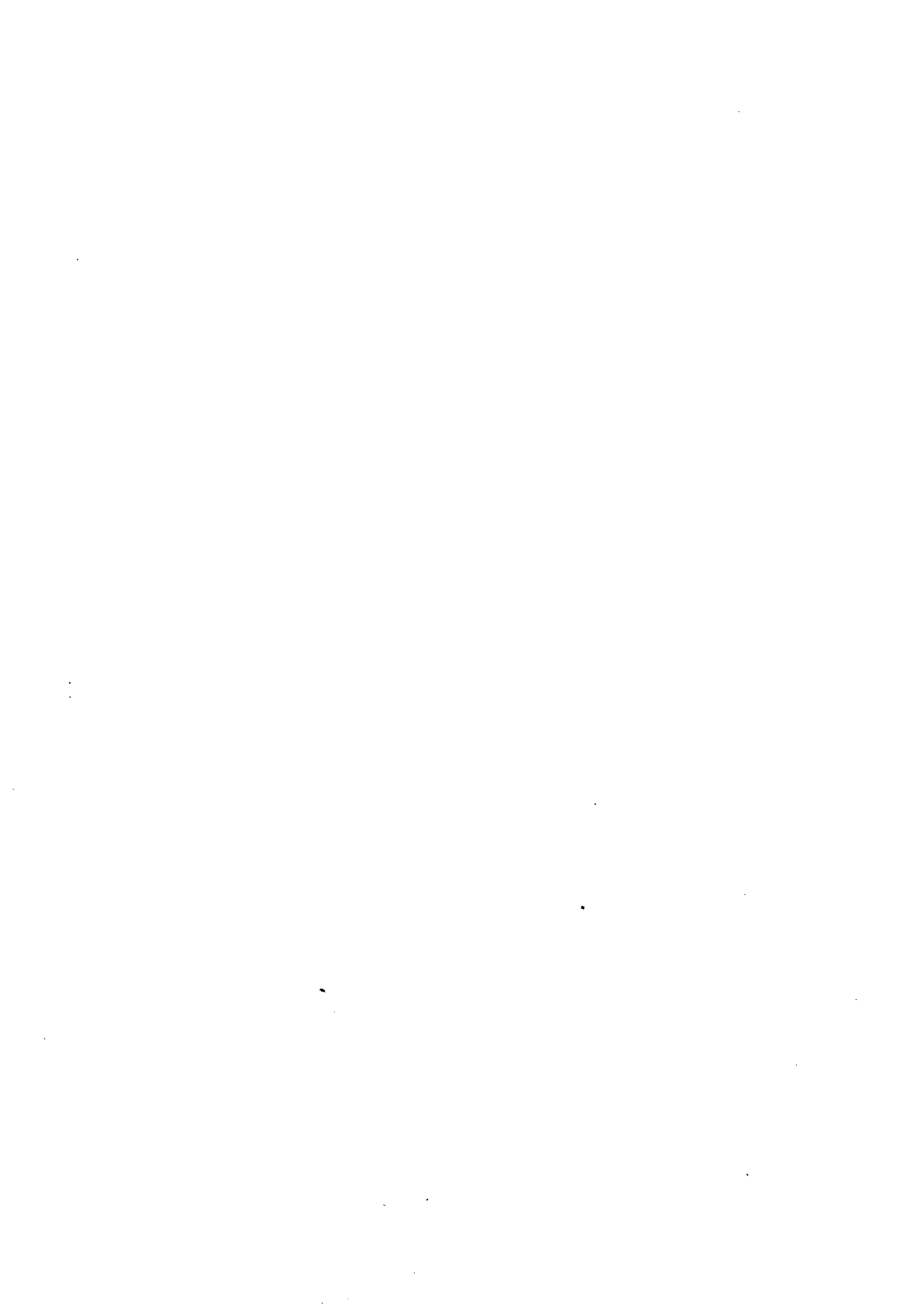
ــ لا خيب الله رجائى فيك أيها الصديق العزيز ، ودام عزك .. أرجوك أن تسرد على ذلك الاقتراح ، وهو مقبول باذن الله تعالى ..

فقال المرابى :

ــ اذا رضيت أن تزوج ابنك من ابنتى ــ وهى كما تعلم على قدر كبير من الجمال ــ فاننى أرفع ما عليك من الدين والفائدة .

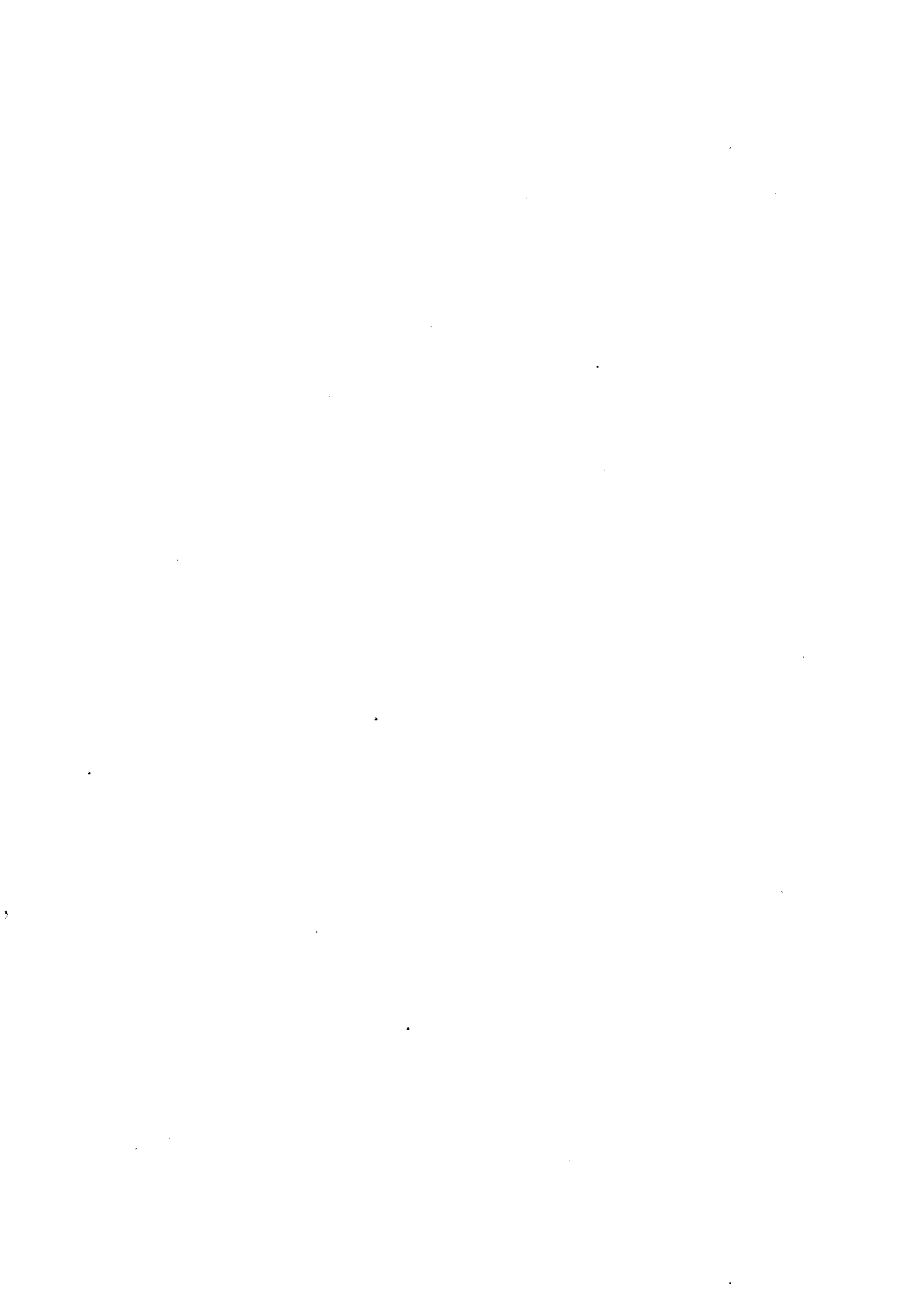
* * *


في سبيل الحرية



في سبيل الحرية

عبد الرحيم حجاج



تقديم للقصة

حاولت هذه القصـــة أن تلتزم باتباع نقط معينـــة ، رأيت أن أعرضها سلفا توضيحا لبعض الحقائق . ولكن فى غير كشف لشىء من أحداث الرواية . وفيما يلى هذه النقط .

التاريخ الواقعى :

اهتمت القصة بأن توضح أحداث تاريخنا الوطنى فى أوائل القرن التاسع عشر فى انصاف وفى اعتدال . ولذلك ستدور أحداثها الاجتماعية جنبا الى جنب مع الاحداث التاريخيه الحقيقية . وتقع حوادث القصة عام ١٨٠٧ أى عقب تولى محمد على حكم مصر بعامين . ولكن مما لا شك فيه أن الناس الذين كانوا يعيشـــون هذه الفترة من التاريخ قد ارتبطت حياتهم بالاحداث التى مرت بهم فى الاعوام القلائل التى سبقت هذا التاريخ . فالرجل الذى عاش فى « رشيد » عام ١٨٠٧ كان يتماثل أمام عينيه وقتذاك مقدم المستعمرين الفرنسيين عام ١٧٩٨ ، ثم مقدم المستعمرين الانجليز عام ١٨٠١ ، ثم ثورة المصريين عام ١٨٠٥ الى آخر هذه الاحداث القومية التى كان الناس يحيون فيها بقلوبهم وأذهانهم ودمائهم .

المكان الواقعى :

تدور حوادث القصة فى أماكن حقيقية متفرقة من وطننا شهدت أحداث المعارك كالاسكندرية وثغر رشيد ، وربوة « أبى مندور » العالية التى تجثم جنوبى الثغر ، وقرية « الحماد » التى تقع على فرع النيل على مقربة من رشيد . وعندما دارت هذه القصة كان هناك كثير من المعالم والابنية والقلاع التى انطمست آثارها حاليا. ولم يبق منها الا بقايا اطلال قلائل . ولقد عنيت القصة بتوضيح أصل هذه المعالم واظهار تاريخها مختصرا ومندمجا مع حوادث القصة . فضريح « أبى مندور » مثلا له دوره الذى يتناقله الناس بين هذه الاحداث ، وبالمثل حصن رشيد ، ومسجدزغلول .. ألخ.. وبذلك لم تبتعد القصة عن الصورة الخالدة التى مازالت ترتسم فى أذهان الاجيال المتعاقبة من أهالى رشيد . ولقد عملت على زيارة هذه الاماكن واستيضاح تاريخها حتى تستكمل القصة عملها الفنى والتاريخى .

الدراسة الاجتماعية للقرن التاسع عشر :

حاولت القصة أن تقدم كلا من حوادثها التاريخية وشخصياتها الروائية داخل الاطار الاجتماعى الذى كان يجمع أحوال الناس ومعيشتهم فى هذه الفترة من التاريخ ، كأحوال التجارة والزراعة، ونظام الزواج والمحافل ، وأخبارالمدنوالثغور ، وطرقالمواصلات. ثم تعرضت القصة لتطور الوعى القومى الذى بدا واضحا فى

الثورات الوطنية العديدة ، والتى تعد بحق أهم الملامح الاجتماعية التى سيطرت على أحوال الناس فى ذلك الوقت ، مثل ثورة المصريين ضد الفرنسيين عام ١٨٠٠ ، ثم ثورتهم ضد الوالى العثمانى عام ١٨٠٥ ، ثم بعض الثورات المحلية الاخرى كثورة دمنهور ضد « الالفى » عام ١٨٠٧ . فقد كانت هذه الثورات هى حقا حياة المصريين وقتذاك ، كما كانت بعضا من العوامل والاحداث التى صنعت شخصيات هذه الرواية .

تكملة قصة السيد الرئيس :

التزمت القصة بجميع الشخصيات التى وضعها السيد الرئيس . كما أضافت بعض الشخصيات الحقيقية والخيالية بالقدر اللازم لتحريك حوادث القصة وتطويرها فى الاتجاه المرسوم لها . وبرغم أن هذه القصة احتوت على جميع الفصول والكلمات والشخصيات التى خطها السيد الرئيس بقلمه ، الا أن الفصول الخمسة الاولى للقصة الاصلية لن ترد فى هذه الرواية بنفس الترتيب الذى جاءت به ، بل سترد مجزأة ومتداخلة ضمن نسيج القصة الجديدة (١) وكان ذلك بقصد اظهار بعض الوقائع التاريخية السابقة لعام ١٨٠٧ ، وتمشيها مع تطور القصة .

وبعد فانى آمل أن نصور هذه القصة بعضا من الروح الوطنية

---

(١) بداية قصة السيد الرئيس جمال عبد الناصر سترد بنصها باللون الاسود .

الفياضة التى ملكت قلوب « الرشايدة » .. قلوب المصريين .. قلوب العرب .. فى هذه الحقبة من التاريخ التى كادت تتباعد عن أذهاننا بعزها ونصرها ، والتى امتد اليها قلم السيد الرئيس ـ محمودا ـ ليقيم صلات كريمة دقيقة بين مجد خالد وبين مجد حاضر .

عبد الرحيم عجاج

المراجـــع

١ ـ الجـــبرتى : عجائب الآثار (تاريخ الجبرتى)

٢ ـ وزارة الحربية : الحملات الاستعمارية على مصر فى القرن التاسع عشر المطبعة الاميرية ١٩٥٧

٣ ـ ادوار جـــوان : مصر فى القرن التاسع عشر . تعريب محمد مسعود القاهرة ١٩٣١

٤ ـ جورجى زيدان : تاريخ مصر الحـــديث . مطبعة الهلال . القاهرة ١٩٢٥

٥ ـ صالح جـــودت : مصر فى القرن التاســـع عشر . مطبعـــة الشعب . القاهرة ١٩٠٤

٦ ـ محمد رفعت ومحمد حسونة : تاريخ الاسلام ومصر الاســـلامية ١٩٥٧

٧ ـ جمال عبد الناصر : فى سبيل الحرية

٨ ـ دراسة على الطبيعة: تمت فى زيارة رشيد ، والحماد ، وابى مندور

٩ ـ عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية (الاجزاء الثلاثة الاولى)

10. A short history of Islamic Egypt *(Walter Briels)*.

11. Secret history of the English occupation of Egypt *(Baldwin)*.

تواريخ الاحداث الواقعيـة
(فى أوائل القرن التاسع عشر)

تدور حوادث القصة فى عام ١٨٠٧ ، بعد ثورة المصريين وعزلهم الوالى التركى وتعيينهم لمحمد على واليا على مصر عام ١٨٠٥ .. وفيما يلى مجمل الاحـداث التى لازمت زمن القصة ، وكذلك الاحداث التى سبقت عام ١٨٠٧ وارتبطت بحوادث القصة .

قبل عام ١٨٠٧

١ ـ يوليو ١٧٩٨ (٩ سنوات قبل ١٨٠٧)
استولت الحملة الفرنسية على رشيد

٢ ـ ٢٠ مارس ١٨٠٠ (٧ سنوات قبل ١٨٠٧)
نشبت ثورة القاهرة (الثانية) ضد الفرنسيين فأحرق كليبر بولاق . وكان قد تولى الحملة بعد رحيل نابليون . وعلى أثر ذلك قتله سليمان الحلبى فى يونيو عام ١٨٠٠

٣ ـ مارس ١٨٠١ نزلت الحملة الانجليزية بقيادة « ابر كرمبى » فى « أبى قير » لمعاونة الاتراك فى طرد الفرنسيين ، واستولت على رشيد (بمعاونة قوة تركية) فى ١٦ ابريل ١٨٠١ . ثم جلا الفرنسيون عن مصر فى نفس العام . (٦ سنوات قبـل ١٨٠٧) .

٤ ـ ١٦ مارس ١٨٠٣ (٤ سنوات قبل ١٨٠٧)
اضطر الانجليز للجلاء عن مصر وقد مكثوا بها عامين .

د ــ عام ١٨٠٥ (عامان قبل ١٨٠٧)

ثار الشعب المصرى وتمكن من عزل الوالى التركى وتعيين محمد على واليا على مصر ، وبدأت مصر تتخلص من النفوذ الاستعمارى الاجنبى .

حوادث عام ١٨٠٧

١ ــ احتلال الاسكندرية :

(ا) ٦ مارس ابحر فريزر من صقلية ــ وقابلته عاصفة بحرية شطرت حملته قسمين .

(ب) ١٦ مارس وصل الشطر الاول الى الاسكندرية وأخذ يضرب ابراجها بالمدفعية .

(ج) ٢١ مارس دخل الانجليز الاسكندرية وقد سلمها لهم الخائن أمين أغا حاكمها .

٢ ــ التقدم الى رشيد :

(ا) ٢٩ مارس تحرك الجيش الانجليزى من الاسكندرية بقيادة « ويكوب » ومعه ٢٠٠٠ مقاتل الى رشيد واستولى على مرتفعات « أبى مندور » (قبل وصول الشطر الثانى للحملة فى ٣٠ مارس)

(ب) ٣١ مارس (اليوم التاريخى لرشيد) دخلت القوات الانجليزية رشيد وقد أعد لهم أهالى البلدة المفاجأة التى قضت عليهم فقتل « ويكوب » وقتل معه مائة وسبعون وجرح مائتان وخمسون ، وأسر مائة وعشرون (أى اكثر

من ربع القوة) وتقهقر الباقون مذعورين الى الاسكندرية.

٣ ـ حصار رشيد :

(ا) ٣ ابريل تحرك « ستيوارت » من الاسكندرية على رأس أربعة آلاف مقاتل وآحد عشر مدفعا واحتل كلا من « أبى مندور » و « الحماد »

(ب) ٧ أبريل بدأ حصار رشيد وضربها بالمدافع من « أبى مندور » واستمر حصارها أثنى عشر يوما القى فيها على رشيد أكثر من ثلثمائة قنبلة . ولم تسلم البلدة .

(ج) أما محمد على « باشا » فلقد ظل منشغلا بالمماليك فى الصعيد حتى ١٢ ابريل

٤ ـ معركة « الحماد » وفك حصار رشيد :

(ا) ٢٠ ابريل وصلت القوات المصرية من القاهرة واشتبكت مع الانجليز فى معركة « الحماد » وأحاطت بجنود العدو وقتلت نصفهم وأسرت النصف الباقى . وبذلك وقعت حملة الحماد كلها فى أيدى المصريين

(ب) ٢٢ ابريل اضطر « استيوارت » لرفع الحصار عن رشيد وانسحب الى الاسكندرية

٥ ـ الجلاء :

(ا) مايو ١٨٠٧ عرض فريزر الصلح على « محمد على » وقد نزلت به الضربات فى رشيد وفى الحماد .

(ب) ١٩ سبتمبر ١٨٠٧ جلا الانجليز نادمين عن البلاد فى نظير استرجاع اسراهم وجرحاهم .

شخصيات الرواية

(التى وضعها الرئيس جمال عبد الناصر)

١ ــ **مراد باشا** : قائد حامية رشيد عام ١٨٠٧.
٢ ــ **طاهر بك** : عمدة رشيد وحاكمها (١)
٣ ــ **ابراهيم طاهر** : ابن حاكم رشيد .. وكاتم أسرار « مراد باشا » قائد الحامية .
٤ ــ **محسن** : اخوان . وهما ولدا « جاد الله » أحمد
٥ ــ **ابراهيم (٢)** : أعيان البلدة .
٦ ــ **وداد عاصم** : بنت احمد بك عاصم من أعيان البلدة ــ مخطوبة لمحسن جاد الله
٧ ــ **فطان باشا** : مستوطن بالمدينة ــ تجنس بالجنسية المصرية واعتنق الاسلام
٨ ــ **بنت فطان باشا** : (وستعرف فى هذه القصة باسم : درة)
٩ ــ **الرجل المقنع** : شخصية مختفية تلعب دورا وطنيا هاما ضد الأعداء .
١٠ ــ **فريزر** : قائد الحملة الانجليزية المعتدية (وهو
١١ ــ **ولنجتن** : شخصية تاريخية حقيقية)
١٢ ــ **برس** : من قادة الانجليز

١٠ ــ فريزر : قائد الحملة الانجليزية المعتدية (وهــو شخصية تاريخية حقيقية)

١١ ــ ولنجتن : من قادة الانجليز

١٢ ــ برسى : من قادة الانجليز

شخصيات اضـــافية

١ ــ الشيخ حسن كريت: نقيب الاشراف برشيد (وهو شـــخصية تاريخية حقيقية . كان له فضل كبير فى رفع الروح المعنوية والمقاومة الشعبية للبلدة)

٢ ــ جابر الرشيدى : من أهالى رشيد

٣ ــ جميلة الرشيدى : بنت جابر الرشيدى .

٤ ــ الجنرال ويكوب
٥ ــ الجنرال ستيوارت
٦ ــ الكولونيل ماكلود

} شخصيات حقيقيــة لقادة الانجليز (من التاريخ)

نار في القلوب





١

يوم لاينسى ...

... هذا اليوم العابس أوله ، الباسم آخره فى عام ١٨٠٧ ..

قال الانجليز هذه مصر ، استقلت عن الترك وحكمت نفسها ، وهى على هذا لقمة سائغة تمضغ وتبتلع ، اذ ماذا تستطيع ملايينها الثلاثة ان تصنع امام اسطول بريطانيا وجيشها المدرب العظيم ومدافعها وقنابلها .

قال الانجليز هذه هى الفرصة قد سنحت لتحقيق حلم قديم ، وامل طالما جاش بنفوس الانجليز القدامى ..

... وما هى الا أسابيع حتى رست على شاطىء الاسكندرية اساطيلهم ، ودوت القذيفة الاولى من قذائف البحرية البريطانية ، وهم يظنون انها مسمار كبير فى نعش الحرية والكرامة المصرية ، وعن قليل سوف تكفن هذه الحرية وتوسد فى قبرها ، وينهال عليها التراب ..

أصبحت الاسكندرية ذات الماضى الحافل تتقد نارا وتشتعل .. نارا رأى المصريون على ضوئها أفظع صور الظلم والجشع والطغيان ..

وهام اهل الاسكندرية على وجوههم ، وخرجوا باطفالهم ونسائهم لا يعرفون مصيرهم ، وبيوتهم من ورائهم تقصف بها عواصف الجحيم .

نار فى كل مكان .. نار فى المدينة .. ونار فى القلوب ..

وكان اليوم العابس هو ١٦ مارس ١٨٠٧ .

ولم تكد تغيب شمس هذا اليوم ، ويحتجب قرصها الملتهب وراء اليم ، حتى سطر القدر بيده على صفحة الاحداث أغرب الاهوال والمصادفات .. وكان التاريخ الذى يحمله ذلك اليوم هو أول مصادفة غريبة !

ففى نفس التاريخ ١٦ مارس ولكن من عام ١٨٠٣ ، سبق أن جلا الانجليز عن حصون الاسكندرية وقلاعها ، وسلموها كاملة الى خورشيد باشا حاكم الثغر !.. كانوا قد أتوا فى عام ١٨٠١ ليعاونوا الاتراك فى طرد الفرنسيين (١) ، وجلا الفرنسيون فى ذلك العــــام ..

ولكن لم يجل الانجليز الا بعد عامين كاملين ..

كانوا يأملون أن يطول بهم المقام أبد الدهر ! ولكن سارت الحوادث على غير ما يشتهون ..

فكان أن حملوا عصاهم على كاهلهم ورحلوا عن البلاد ..

واليوم يعودون ! وفى نفس التاريخ ! بعد أربعة أعوام كاملة .. لكى يحققوا الحلم الذى لايفارق أعين المستعمرين القدامى ..

* * *

وجلس « الجنرال فريزر » ـــ قائد الحملة ـــ فى غرفة القيادة بسفينته تحت صورة الاسد البريطانى .. وراح يفكر فى هــذا الاتفاق التاريخى الغــريب ! ولم يدر الجنرال ، أيتفاءل بهــذه المصادفة الغريبة ، أم يتطير بها .. والحقيقة انه كان يحس بينه وبين نفسه بالضيق والتشاؤم . فمنذ أن كلف قيادة الحملة والنــذر السيئة تأبى الا أن تبلغه ..

---

(١) ـــ حملة « ابركرمبى » التى نزلت فى مصر عــــام ١٨٠١ ، وانسحبت فى ١٦ مارس ١٨٠٣ ، أى قبل حملة « فريزر » بأربعة اعوام كاملة « تاريخ الحملات »

فهو يتذكر كيف هبت عليه عاصفة هـوجاء ، شطرت حملتـه صفين فى عرض البحر ، فى اليـوم الذى غادر فيه صـقلية الى الاسكندرية ... ولقد تطير الرجـل منذ أول وهلة بهـذه الريح العاتية ، التى فصلت باقى سفنه عنه . (١)

واليوم جاءه رسول ينبئه بوفاة محمـد الالفى زعيم المماليـك صنيعة الانجليز واغتم « فريزر » لذلك غما شـديدا .. وكاد يدركه الخيال من فرط الصدمة ، فقد كان يعقد رجاء كبيرا حـول الألفى وجنوده .. فمنذ برهة قصيرة كان يتحدث مع قادة الحملة ويذكر لهم أن للحملة بقية كبيرة فى البر . وكان يقصد بهذا المعنى جيش الالفى .. اذ كانت خطة الانجليز أن يتقدم الالفى بجيشه أمامهم يمهد لهم الاسـتيلاء على القطر وهم يشـدون آزره من الخلف . وبذلك يتلقى المماليك أثقل صدمة ، ويقع على عاتقهم أفدح الخسائر .. وعندئذ يسهل على الانجليز ازدراد اللقمـة السائغة .. وحينما يتم لهم النصر الزائف لا يفوتهم أن يتحدثوا طويلا عن التضحية .. التضحية بآخر رجل لديهم .. من رجال المماليك !!

ومن أجل ذلك كاد « فريزر » يجن ، وهو يستمع الى النبـأ الشؤم .. وسأل الرسول متجهما :

ـ مات الالفى ؟ كيف مات ؟

---

(١) ـ لم تصل باقى السفن الى الاسكندرية الا فى نهاية مارس ، وبعد أن أرسل « فريزر » جيشه لغزو رشيد « تاريخ الحملات »

ـ مات وحده يا سيدى ..

فغضب « فريزر » وصرخ :

ـ هذا الخائن ، من أمره أن يموت الآن ؟

وتعجب الرسول من أمر الرجل وراح يحكى له كيف انتظرهم « الالفى » طويلا بدمنهور . فلما تأخر مجيئهم رحل عنها الى الجيزة فأصابته الحمى الخبيثة . وهناك وافته منيته (١)

وتابع « فريزر » حديثه :

ـ لقد دفعنا للألفى كثيرا ، والآن يتركنا ويموت ! على أية حال ، نحن على أتم الاستعداد لان ندفع لغيره ..

... كانت عقيدة الانجليز أن الذهب يشترى كل الذمم . لقد بيع « الالفى » وهو مملوك صغير الى مراد بك بألف أردب من القمح ، ولذلك سمى بالالفى (٢) . وقد كان كل حكم من حكام مصر العثمانيين والمماليك صورة من « محمد الالفى » فى نظر الانجليز !! يباع فى صغره بالقمح ، ويشترى فى كبره بالذهب ..

ولقد نجحت عقيدتهم الملتوية وأفلحت مع خائن آخر هو « أمين أغا » حاكم الاسكندرية .. واشتروا ذمته الخربة بالاصفر الرنان .. فلم يلبث أن سلم لهم الثغر الآمن .. وعندما فتحت أبواب السفن أمام جنود الانجليز اندفعوا يهبطون فوق الدرج الممدودة الى البر فى انطلاق مجنون .. وكانوا أشبه بالمارد الحبيس الذى

---

(١) ـ الجبرتى (٢) ادوار جوان

انطلق من سجن ضيق الى فضاء رحيب . وراحت أقدامهم تدس الثرى الطيب ..

وسلم الخائن « أمين آغا » جنود الحامية للعدو . فبعث بهم أسرى الى مالطة [1] ومع ذلك فقد بقى هناك نفر من المجهولين الاحرار ممن أبت نفوسهم الضيم واستعصت على الهزيمة ، فأخذوا يتربصون بالعدو الدوائر لكى يذيقوه من مرارة كأسه .. واستطاعت جماعة منهم أن تحرق مركبين كبيرين من سفن «فريزر» ..

وكان الليل ساجيا هادئا عندما صعد لهب المركبين الى أجواز السماء .. وأحس « فريزر » بغصة فى حلقه .. وقد وقعت عيناه على هذا المشهد من خلال الكوة الصغيرة فى غرفته .. وجمدت يده على كأس الخمر التى يشرب نخبها احتفالا بنصره الغادر الرخيص .

... وكان يجلس قبالته الاميرال « لوس » قائد البحرية وقد ملكته نشوة الخمر والزهو معا ، حين نجحت مدفعيته فى اصابة أكبر أبراج الاسكندرية عند الغروب .. كم كان منظر المركبين المحترقين أليما ومؤثرا فى نفوسهم المتبلدة .. أما الحريق الذى شب فى البرج الكبير ، وفى دور الاسكندرية الوادعة ، فكان مثارا لغبطتهم وهنائهم ..

---

(١) — حوادث واقعية « ادوار جوان »

وبدا الشاطىء المقدس من بعيد صامتا رهيبا .. تهدر الامواج عند اقدامه وترتفع النيران فوق هامته ..

ولحظ القادة الجالسون قبالة الجنرال ما عليه كبيرهم هذا من هم وتوجس !! وتكلم « فريزر » وخرج صوته ضعيفا متهدجا من بين شفتيه :

ـ لا أدري ماذا يخبىء لنا القدر على أرض الفراعنة .. لقد مات الالفي الذى كنا نعتمد على رجاله . وحرق المصريون سفينتين من سفننا (١) .. وأبطأ عنا شطر الحملة الثانى وأظن مددنا ليس كافيا ازاء المقاومات الشعبية المتوقعة من الاهالى المصريين ..

واستطرد الجنرال حديثه وهو يدق المنضدة بيده مؤكدا أهمية قوله :

ـ لكننا سنسعى جاهدين لتحقيق مهمتنا بكل الاساليب وبكافة الحيل ..

فمصرمنا تعني ثلاثة أمور : الهرم .. والنيل .. والبحر الاحمر . ويعنى الهرم التحف والآثار والذهب .. ويعنى النيل الخير والرفاهية .. أما البحر الاحمر فاننا عازمون على اخضاعه للتاج البريطاني ، فهذا البحر ما هو الا تتمة لنهر التايمز الى الهند الخصيبة ، ومن أجل ذلك دمرنا أسطول نابليون فى أبى قير منذ

(١) حوادث واقعية (محمد مسعود)

تسعة أعوام ، ومن أجل ذلك نزلنا بجيوشنا فى مصر منذ ستة أعوام .. ومن أجل ذلك نعـود اليها اليوم ..

ولعل « فريزر » كان يرغب بحديثه هذا أن يطرد الوساوس عن نفسه أكثر من أن يثير الحماسة فى نفوس الباقين .. وعلى أثر هذا الحديث اقترح الاميرال « لوس » قائد البحرية أن يشرب الجميع نخب التاج البريطانى .. ووقف القادة ورفعوا كؤوسهم ، وألقو بنظرة التحية الى صورة الاسد البريطانى التى تعلورؤوسهم ولكن حدث ما أعاد التوجس الى نفس « كبير القراصنة »ورجاله، حتى بدا كأن القدر يعاند المغتصبين على طول الطريق فى كل كبيرة وصغيرة .. فقـد هبت الريح من جديد عاصفة غاضبة .. وضربت بذيلها نوافذ غرفة القائد الصغيرة ففتحتها عنوة .. واطفأت الشموع والقناديل ومدت يدها الى صورة الاسد البريطانى الغاضب فنزعتها من فوق الجدار وألقت بها على الارض .. وفزع الرجال .. وأحس « فريزر » الغصة فى حلقه من جديد .. وعاوده التطير والتوجس ..

.. وجاء الخادم وأوقد الشموع وامسك بالصورة يعيدها سيرتها الاولى ، وبدا الاسد البريطانى مكتئبا غاضبا ، يعبر عن حقد الانجليز الاسود على العالم الآمن ..

وراح الاميرال « لوس » يرسل دعاباته وثرثرته حتى يطرد هذا الشىء الخفى الذى كان يجثم فوق قلوبهم .. وبدأ يسأل الجنرال

عن الخطوات الحربية التالية .. عندئذ أخرج « فريزر » من درج المنضدة أمامه قائمة طويلة وجعل يتفرس الاسماء التى بها .. ثم وقف أصبعه على كلمة (العميل رقم ٥٦٦) وقال :

هذا الرجل سيكون ذا نفع خطير عندما نتقدم لغزو رشيد .. وعندما تقع كل ثغور القطر فى أيدينا يسهل علينا الاستيلاء على كل أرض الفراعنة ..

وعلى ذكر أرض الفراعنة ، لم يفت الاميرال « لوس » أن يرسل بدعابة متكلفة فقال :

ــ ان الانسان لا يجزع اذا وافته منيته فوق هـــذه الارض . فسوف تحنط جثته وتدفن كمومياء فى أحد الاهرامات الكبيرة ..

ولكنه عاد يصحح حديثه قائلا :

ــ لا لا .. يا جنرال أستحلفك بربك اذا مت أن تنقل رفاتى الى انجلترا .. فذلك أحب الى نفسى !! !

وراح يعب الخمر من جديد .. كان الاميرال « لوس » لا يفيق من الخمر حتى يعود ليثمل ثانية ..

وهنا قال له « فريزر » :

ــ لا تجزع يا أميرال فمثلك لن يموت فى قبر بالبر . بل يغلب على ظنى انك ستموت فى دن من الخمر .

.. يا الهى .. هـــل كان هؤلاء الرجال المغتصـــبون يستشفون الغيب ؟ أم هل كانت أرواح الشهداء الابرياء تحوم حول رءوسهم

وتستمطر عليهم غضب السماء ؟.. أم أن روحا من أرواح الفراعنة الهائمة ساءها تعذيبهم وإذلالهم تلك الليلة فصبت نارها على شيء؟..

لم يدر أحد حقيقة الأمر .. ولكن من الغريب أن كل كلمة فاه بها الرجل نبية تحققت مع الأيام .. ولم يتح « لفريزر » أن يطلع على الغيب ويدرك أنه بعد ستة أشهر عائدا وحده الى انجلترا مثقلا بخيبته .. وقد فقد كل قادة الحملة الذين حضروا اجتماع الليلة .. ولم يصحب منهم الا رجلا واحدا ... حمله جثة مكومة في دن من دنان الخمر .. وكانت الجثة للاميرال « لوس »(١)

.. واستمهل قادة بقية الفاتحين .. وتركهم طويلا يستمتعون بالنصر الزائف .. وزحفت جنودهم الى الثغر حتى وصلوا أسوار المدينة .. وانقطعت شرذمة منهم الى « أبي قير » وعزلوا الثغر الآمن .. وقطعوا عن أهله المسالمين كل سبيل للنجاة .. وأخذ « فريزر » يفكر في الزحف الى رشيد .. وكلف من يقابل بها الجاسوس ٦٦٥ ليوافيه بأخبار تحصينات البلدة وخططها .. حتى يستولى عليها غدرا وخيلة .. كما فعل بالاسكندرية الآمنة .

.. وبدأ اللهب ينحسر عن أطلال المدينة ..

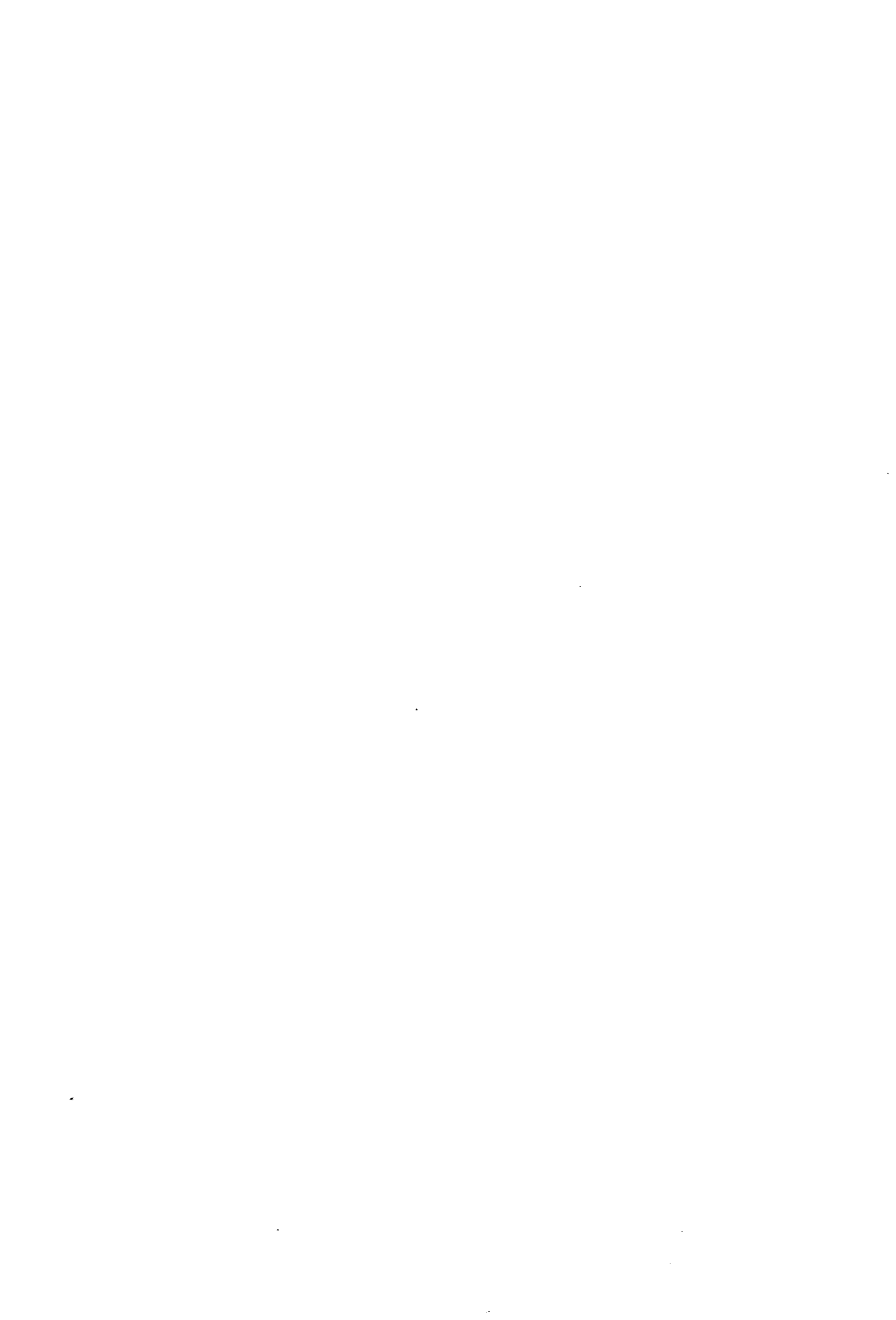
---

(١) ــ مات الاميرال « لوس » في نهاية الحملة بالحمى الخبيثة واحتفظوا بجثته في برميل من براميل الروم حتى لاتتعفن . (أدوار جوان) .

وأخذت النار المتوهجة يخبو أوارها ، ولكن ظلت هنــاك نار مستترة لا تخمد ولا تنطفىء .. نار حامية السعير .. نار أقوى وأذكى من أى نار ..

فهى نار فى القلوب !

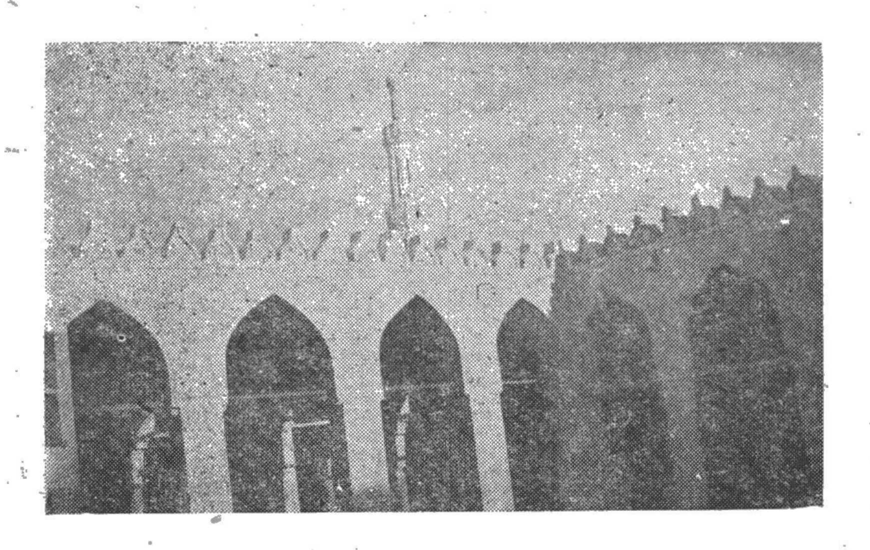

المحبوس ٥٦٦



٢

وقع خبر سقوط الاسكندرية على أهالى رشيد وقعا سيئا أثار فى نفوسهم كوامن الحزن والتوجس . فلقد ظلت « رشيد » مسرحا للحوادث الدامية منذ أكثر من تسعة أعوام .. وراحت البلدة تهمس بقرب مجىء المستعمرين الجدد ، وقد أصبحوا فى « أبى قير » على مسيرة أقل من نهار واحد من رشيد .. بلدتهم الوادعة التى تقف كالحارس الامين عند طرف النيل الخالد .. وكان العالم يأمل أن تبزغ شمس القرن الجديد على عهد أكثر بشرا وأملا .. ولكن يبدو أن المستعمرين من قراصنة أوربا الجاثمة على الضفة الاخرى للبحر الكبير كانوا قد عقدوا العــزم على أن يســلبوا الأهلين فى شواطىء أفريقيا الحبيبة كل أمن وطمأنينة ..

وعادت الى القوم ذكرى احتلال الفرنسيين بلدتهم منذ تسعة أعوام فى عام ١٧٩٨ بقيادة نابليون بونابرت ، وما حل بالبلد الامين على أيديهم من عذاب وآلام . لقد انتهكوا الحرمات ، ودمروا الدور الآمنة ، ودنسوا بسنابك خيولهم المساجد وبيوت الله ،



مسجد زغلول برشيد

وما زالت أعمدة جامع زغلول (١) تشهد كيف جعلوا منها مرابض لخيلهم .. وجاء من بعدهم الانجليز بقيادة « ابر كرمبى » واحتلوا البلدة عام ١٨٠١ منذ ستة أعوام .. ولم يكن هؤلاء المعتدون أقل ضلالا من أشباههم الذين سبقوهم ، فقد جلبوا معهم نفس النحس والخراب ، ومنذ أربعة أعوام جلا هؤلاء المعتدون .. واليوم يعودون ..

... يعودون ليحرقوا المدن والقرى ، ويشيعوا السلب والنهب.. ويأتوا على الزرع والضرع .. ويبقروا بطون الحوامل .. ويحرقوا أطراف الرجال أحياء ويقطعوا الرءوس .. وييتموا الولدان .. وتتبعهم عواصف الخراب أينما حلوا ، وأينما أقاموا فى كل سهل أو جبل ..

وهرع أشراف المدينة وأعيانها يتوافدون على بيت طاهر بك الحاكم .. وكان الرجل يحاول أن يبدو هادئا ، ولكن كان من السهل على العين الفاحصة أن تلحظ على جبينه أمارات القلق والتوجس .. اذ كانت حامية المدينة لا تزيد على بضع مئات من الجنود ، المزودين بالاسلحة الخفيفة القليلة (٢) .. وماذا تستطيع أن تفعل هذه الاسلحة البدائية ازاء مدافع الحصار الثقيلة التى

---

(١) — مازالت بقايا هذا المسجد برشيد . ويرجع تاريخ المسجد الى القرون الوسطى وقد كان يحتوى على ٣٦٥ عمودا بقدر أيام السنة (رواية الاهالى فى رشيد) .

(٢) — ٧٠٠ جندى « تاريخ الحملات » .

جلبها القراصنة معهم من جزرهم النائية .. هذه الجزر التى تصدر الدمار الى أنحاء العالم الآمن ..

لقد بعث الرجل يطلب من « القاهرة » أن ترسل اليه امدادا من الرجال والمؤن .. وكان يدرى أكثر من غيره أن القاهرة ستصم آذانها عن كل مطالبه .. اذ كان كل همهم فى العاصمة البعيدة أن يبعثوا بالمؤن والرجال الى الصعيد .. حيث انشغل « محمد على باشا » بمقاتلة المماليك ، حتى يخلو له عرش القطر من كل منازع ..

ولم يتلق طاهر بك من القاهرة ردا على طلبه سوى اقتراح بأن يرسلوا الى حاميته بضع مئات من الجنود العثمانيين ..

ولقد رفض الحاكم هذا العرض فى غير تفكير أو تردد .. فهو يعلم جيدا ما عليه جنود الاتراك من فساد وسوء خلق .

وشجعه على هذا الرفض الشيخ « حسن كريت » نقيب اشراف البلدة . وقال الرجل للقوم وقتذاك وعلى وجهه أمارات الجد والحماسة :

ـ هذه أرض مصر ، وأمامكم نيل مصر .. ورشيد ثغر مصر .. ولن يدافع عن وطننا مصر الا رجال من مصر . لا أتراك ولا مماليك .. نحن الذين سنحمى رشيد بأيدينا ، لا بأيدى غيرنا .. ففيها زرعنا ونساؤنا وبيوتنا .. ولا بارك الله فى زرع أو بيت لا يفديه أهله ..

ووافق القوم عندئذ ألا يوكل أمر الدفاع عن رشيد الا الى أهالى رشيد .. وأثارت هذه الكلمات الحارة فى ابراهيم ابن الحاكم

غيرته وبأسه ، فذهب يعدو الى مراد باشا قائد الحامية ليضع خطة الدفاع عن البلدة بأبناء البلدة القلائل .. كان ابراهيم ابن الحاكم يعمل كاتم السر للحامية ..

وعندما هم ابراهيم بالخروج استوقفه الشيخ كريت قائلا :

ــ يابنى ، انى سأكتب الى الشيخ « عمر مكرم » نقيب الاشراف فى القاهرة أن يبعث الينا بالمؤن والسلاح بدلا من أن يرسل الينا بجنود الاتراك الذين يعيثون فى الارض فسادا .

وعندئذ أجابه ابراهيم طاهر ملوحا بيده فى بأس :

ــ ان جاءنا سلاحهم ومؤنهم فهى خير وبركة ، أما اذا لم تصلنا فوالله سيكون سلاحنا أيدينا ، ومؤونتنا صبرنا ..

واندفع الرجل يهرول الى سبيله .. والقوم يشخصون بأبصارهم خلفه ..

... وانفض القوم من دار الحاكم والحماسة تملأ عليهم قلوبهم ، وانتشرت معهم هذه الحماسة الى ذويهم ، وفاضت من هذه الدار على كل أنحاء البلدة ، وكأنها الدوائر تكبر وتنتشر على صفحة الماء ، على أثر القاء حجر صغير فى اليم !

وخلا طاهر بك الحاكم الى نفسه .. ولكن القلق مازال يساور قلبه . فقد بلغه أن « محمد على باشا » يعد العدة للهرب الى « سوريا » ، بعد أن أصبح يواجه عدوين بدلا من عدو واحد ..

أحدهما يدهمه من الشمال من البحر ، والآخر يؤرقه من الجنوب في البر ..

وكان يعلم كذلك أن الانجليز يعملون كل ما في وسعهم للبحث عن خليفة للألفي .. وقد أرسلوا بالفعل رسلهم الى زعيم المماليك في دمنهور (1) وكان ثمة أمر آخر يقلق نفس الرجل ، ويؤرقه الليل وأطراف النهار ..

فقد حدث مرة ان احتاج الى نقود لكي يسدد ما عليه من الدين الذى كان غارقا فيه الى أذنيه ، فلم يجد أحدا يلتجيء اليه غير أحد المرابين ويدعى ((قطان باشا)) الذى عرض عليه المال بفائدة قليلة ، وعندما حان وقت الدفع لم يجد ((طاهر بك)) مايدفعه ، فذهب الى دائنه يستمهله ، فأعطاه مدة أسبوع يدفع بعدها ماعليه من الدين .

والآن ماذا يعمل وقد حل ميعاد السداد ولم يدبر أمر المال ! ومن أين يجيء المال وكل الاعمال التى يسهم فيها بنقوده بالقاهرة معطلة وموقوفة منذ حرب الباشا مع المماليك فى الصعيد . ان قلبه يحدثه بأمور خطيرة ستلوح فى هذه المرة ، فالقاهرة لن تبعث اليه لا بمؤن ولا بأسلحة ، ولا حتى بماله الشخصى !.. ولم يجد الرجل سوى حل واحد أمامه .. هو أن يعاود الاعتذار الى « قطان باشا » الثرى لعله يمهله من جديد ..

وحينما حان الوقت لدفع الدين الذى على طاهر بك ، ذهب الى قطان باشا ليستمهله فقال له قطان باشا :

---

(1) عثمان باشا حسن « الرافعى » .

ـ والله يا أخى انى محتاج جدا الى المال ، ولذلك لا أستطيع امهالك اكثر من ذلك ، وأملى أن تدفع دينك حتى لا أضطر الى نزع ملكية الارض وبيعها . عند ذلك اصفر وجه طاهر بك وأخذ يرجو المرابى ان يمهله بعض الوقت ، ولكنه كان يضرب فى حديد بارد ، وأخيرا انسابت الدموع من عينى الشيخ الهرم الذى وجد الفضيحة أمامه بسحبها الداكنة ...

وقال له قطان باشا :

ـ انى أقترح عليك اقتراحا أنت فيه الرابح ، فان قبلته كان بها ، والا فسأبيع الارض بالمزاد اليوم أو غدا ، واستولى على الدار وأحرمكم منها . فظهر البشر على وجه الشيخ المهدم وقال :

ـ لاخيب الله رجائى فيك أيها الصديق العزيز ودام عزك . أرجوك ان تسرد على ذلك الاقتراح ، وهو مقبول باذن الله تعالى ..

فقال المرابى :

ـ اذا رضيت ان تزوج ابنك من ابنتى ، وهى كما تعلم على قدر كبير من الجمال ، فاننى ارفع ما عليك من الدين والفائدة ..

ولم يكن الجاسوس ٥٦٦ه سوى ((قطان باشا)) .. المستوطن برشيد .. وكان قطان باشا من أهل أرمنيا ، وعندما فقدت ارمنيا استقلالها حضر الى مصر ، وتجنس بالجنسية المصرية واعتنق دين الاسلام ، ولكنه كان من أكبر المرابين فى المدينة فكان يخرج الاموال بفوائد فادحة حتى كرهه الناس ، ولذلك انعزل عنهم وعاش فى مزرعته فى الطرف الشرقى من البلدة . وشيد لنفسه قصرا كان يسكنه هو وابنته .

كانت تلك الفتاة المسكينة لاتخرج من القصر ، وقد فقدت عطف أمها منذ كانت فى السابعة من العمر ، وهى الان فى الثامنة عشرة ..

وقد وردت على ((قطان باشا)) اشارة من الحملة البريطانية بأنه لابد من وجود شخص فى منزل الحاكم لكى يحضر اهم الاخبار

والمؤامرات والخطط التى يعدها ((مراد باشا)) ، لان هذه الاشياء فى عهدة ابراهيم بن الحاكم ..

ودبر قطان باشا خطته ، اذ لابد ان يستولى الانجليز على مصر لـكى تنال أرمنيا استقلالها على ايديهم . هكذا كان الاتفاق بين قطان باشا والانجليز .

ومن أجل ذلك عرض الباشا على طاهر بك الحاكم أن يزوج ابنته درة من ابراهيم ابنه « كاتم أسرار » مراد باشا قائد الحامية ولم يشك طاهر بك فى أمر الباشا وعرضه ..

ولم يدر بخلده أنه يوشك على أن يدخل بيته عميلا رسـمیا للأعداء الذين لا يبعدون عن البلدة أكثر من مسيرة نهار واحد .

وعندما خرج الرجل من بيت الباشا جعل يفكر فى شىء واحد .. هو كيف يقنع ابراهيم ابنه بتقبل هذا الزواج !!


الثائر



٣

كان ابراهيم طاهر يعانى عقدة من أمر زواجه :

فقد كان يرغب فى الزواج من فتاة أحس حيالها حبا وعطفا .. ولكن كان فى حياة هذه الفتاة ما يحول دون زواجهـا فى الوقت الراهن من أى رجل .. كان فى حياتها قصة مرارة ومحنة خلفها الاستعمار الاخير قبل أن يرحل نادما خاسرا .. استعمار الفرنسيين دعاة الحرية الزائفة ..

كانت الفتـاة تدعى « جميلة الرشـيدى » .. وكانت جميلة كاسمها .. حزينة كالمحن التى حاقت بها .. لقد قتل الفرنسيون كل أسرتها ذات يوم منذ سبع سنوات .. أما أبوها فقـد هرب من أيديهم ، ولكنه اختفى ولم يعد .. الى اليوم ..

وتعيش جميلة الآن فى بيت طاهر بك .. ويراها ابراهيم كل يوم قريبة من عينيه ، ولكنه كان يشعر بحواجز عميقة تبعدها عنه .. حواجز المحن !

وعندما تقدم ابراهيم ليطلب يدها ، كان يدرى ردها قبـل أن تقوله :

— لن أتزوج حتى يعود أبى ..

ولم يلح فى الافق أمل ينبىء عن عودة الغائب .. ومرت الايام والسنون ولم تفقد جميلة الرجاء .. بل كانت تنتظره مساء كل يوم عند حافة النافذة ، تترقب ظهوره من وراء الافق البعيد بهامته المديدة ، وعينيه العطوفتين ..

وكان ابراهيم طاهر يترقب نفس الرجل كل يوم عنـد أبواب البلدة .. ولكن دون أن يبلغه نبأ ولا خبر !

ويئست رشيد من مقدم الرجل الشهم ، وكاد ييأس ابراهيم ، ولكن لم تيأس جميلة !!..

ومن حين لآخر كانت جميلة تذكر قصتها المؤسية لمن يسمعها ، فان لم تجد من يسمع راحت تذكرها لنفسها .. كانت قصتها مؤسية مروعة حقا . قصة البشرية التى يدميها الاستعمار الوحشى ..

منذ سبعة أعوام ، وفى يوم حزين من أيام الربيع ..

فى ٢٠ مارس عام ١٨٠٠ على وجه التحديد .. فهو تاريخ لا يغيب عن وعى الفتاة الصغيرة البائسة ، كما لا يغيب عن وعى كل من أقام فى « القاهرة » يومذاك ..

وكانت أسرة « جابر الرشيدى » والد جميلة تقيم فى القاهرة

---

(١) الرافعى .

ذلك التاريخ ، بل كانت هذه الاسرة جزءا من احـداث تاريخ القاهرة ..

فقد اندلعت الثورة قوية عارمة من قلب « بولاق » [1] ضد « مدعى الحرية » .. وعلى رأسهم « كليبر » الذى خلف نابليون وكان قد رحل عن مصر مع رحيل القرن الثامن عشر ..

وفى « بولاق » دبر المصريون أمر الثـورة ، وأقاموا بها سرا معامل للبارود ومصانع للأسلحة والذخيرة ..

وكان « جابر الرشيد » أحد أعضاء « لجنة الثورة » السرية .. وكان يدير فى الظاهر مصنعا للباد « الطرابيش » .. أما الجـزء الخلفى للمصنع فكان يعد قدو بارود ..

وفى اليوم المحـدد للثورة حـر البارود فى قلب الجنـود الفرنسيين .. وأرسلت بولاق عليهم الرصاص والقنابل ..

واستمرت الثورة شهرا لا تخمد ولا تضعف ..

عندئذ عمد « كليبر » الى أسلوب المغول ، وعاد بالبشريةقرونا نحو البربرية .. فأحرق بولاق .. وأضرم بدورها النار .. فراح لهيبها يمتد فى كل مكان . وتهاوى بيت « الرشيدى » . وماتت زوجه وصغاره . ونجا الرجل البائس وابنته « جميلة » . نجـا من محنة النار لتواجهه من جديد فى مكان آخر . كأن الرجل كان على موعد مع المحن أينما سار .. فقد انتقل الى « مصر القديمة » ومعه ابنته .. وغادر بولاق اطلالا تنعى من بناها .. ومر شهران على هذا الحادث المروع وهدأت الثورة ، أو كادت .. هدأت لتبدأ

أهوال جسام جديدة . فقد قتل « سليمان الحلبى » كليبر قائد الفرنسيين انتقاما لامة العرب من آثامه (١) وعادت وحشية الفرنسيين ومجازرهم ..

وخرجت « جميلة » ذات صباح من بيت أبيها تبتاع شيئا لتعود فلا تجد لابيها أثرا .. الا أثر خيط من الدم القانى يقطع الدار من داخلها الى خارجها .. و لم تدر ماذا فعل الآثمون بأبيها .. فقد دخل عليه الجنود الفرنسيون أثناء غيابها فوجدوه جالسا يصنع قهوته بيده .. فهجموا عليه ، ونكلوا به شر تنكيل . اذ فقأوا عينيه ، وشووا وجهه حيا بالموقد الذى كان يصنع عليه القهوة .. كانوا قد عرفوا أنه عضو فى لجنة « الثورة » ، وحسبوا انه على اتصال بمقتل « كليبر » . وانصرفوا من الدار ومعهم الرجل المعذب ..

وهكذا ألفت « جميلة » نفسها وحيدة فى القاهرة .. بل وفى الحياة بأسرها . وهامت على وجهها كالمجنونة .. وكانت لا تبلغ من العمر الا ثلاثة عشر عاما .. ونصح لها أهل الحى أن تعود الى قومها فى رشيد .. فهناك تبعد عن مآسى القاهرة الدامية .. وهناك لن تعدم من يحنو عليها .. وراحت تضرب فى الارض على غير هدى .. حتى التقت بقافلة ترحل الى الشمال فرحلت معها . وظلت تبكى طول الطريق . ولم تكن وحدها فى البكاء .. فكل المآقى التى التقت يومها بعينيها كانت تنضح بالدموع الثخينة .. مثلها .

---

(١) ـــ ١٤ يونيو ١٨٠٠ « ٢١ من المحرم ١٢١٥» الجبرتى .

ولم تكد القافلة تعبر أبواب المدينة من الشمال حتى استوقف رجالها الشرطة الفرنسيون العتاة ، واعملوا التفتيش والتخريب فى أمتعتهم القليلة الباقية .. وسمعت جميلة أحدهم يسأل صاحب القافلة فى عربية ركيكة .

ـ هل رأيتم رجلا مشوه الوجه يدعى « جابر الرشيدى » ؟..
وغاص قلب « جميلة » فى قدميها ، وعرفت أنهم يبحثون عن أبيها الذى فر من بين أيديهم بالامس .. كان أبوها هذا جريئا ..

وتحركت القافلة .. وأحست « جميلة » البرودة فى قلبها وجسدها .. ان أباها حى يرزق .. وسوف يعود اليها يوما .. واقتربت القافلة من بلدة « الحماد » قبيل «رشيد» . وهناك قابلت مصادفة « طاهر بك » صديق أبيها ومعه ابنه « ابراهيم » ..وكانا عائدين هما أيضا من القاهرة الى بيتهم « برشيد » ..

فقد كان « ابراهيم » طالبا بالازهر الشريف . وكان يتردد على بيت أبيها ببولاق .

وأغلق الفرنسيون الازهر .. فقد كان « سليمان الحلبى » طالبا به . وعاد ابراهيم وأبوه الى رشيد .. واصطحبا معهما « جميلة » واستقبلتها أم ابراهيم بالعطف والحب .. وظلت تعيش معهم فى أسرتهم .. فقد قالت لها أم ابراهيم يومذاك :

ـ « يا جميلة » ، لقد عاش كل أبنائى الذكور ، ولكن لم تعش لى بنت واحدة .. فأنت من اليوم ابنة لى ، وأنا أم لك ، حتى يعود

أبوك .. ولم يعد أبوها حتى اليوم .. ولكنها وجدت قبسا من رحمة السماء فى هذا البيت الكريم ..

وكان طاهر بك يعلم بأمر هذه القصة ، ويدرى رغبة ابنه ابراهيم فى الزواج من « جميلة » ، كما يعرف اعراض الفتاة عن الزواج قبل عودة أبيها ..

ولاحت أمام عينيه كل هـــذه الأمور ، كما لاح معهـــا شبح الفضـــيحة .. ان جميلة لا يهمها الزواج من ابراهيم أو من غـــيره بقدر ما يهمها عودة أبيها .. أما طاهر بك فيهمه أمر زواج ابراهيم ابنه ، من ابنة قطان باشا ..

ولم يجد الرجل أمامه الا حلا واحدا .. هو ان يطلع ابراهيم ابنه على كل الحقـــائق ، على الدين وماله المفقـــود فى القاهرة ، وتهديد قطان باشا .

أما اذا ظل ابراهيم متعلقا بحبه اليائس لجميلة ، فعندئذ يضطر لان يبوح له بسر لا يعرفه ابراهيم عن جابر الرشيدى والد جميلة .

عندئذ قد يرضى ابراهيم !

زواج مخادع



٤

.. كانت العصور الوسطى قد خلفت هذه الاسوار والحصون التى كانت تحيط برشيد فى شكل مستطيل من ثلاث ضلوع .. أما الضلع الناقصة من الشرق فكان ينوب النيل الخالد عنها فى حراسة المدينة ، ورد غارات المعتدين من هذا الجانب .

وعند كل زاوية من زوايا المستطيل كان يربض حصن أشم . ففى أقصى الشمال يقف حصن قايتباى الذى بدأت تعرفه المدينة بعد الحملة الفرنسية باسم قلعة جوليان أو قلعة الحجر نسبة الى حجر رشيد (١) .. والى الغرب وقف حصن العبـد .. وكان الحصن متشحا بالسواد ، ولعل تسميته جاءت منتسبة الى منظره . أما فى الجنوب فكان حصن أبى مندور الذى كان يتحكم فى مدخل

---

(١) أمر بانشاء هذا الحصن السلطان قايتباى فى عام ٨٧٦ هجرية (١٤٧٢ ميلادية) وعرف فى عهد الحملة الفرنسية باسم قلعة جوليان ، وعثر الفرنسيون بداخله على حجر رشيد الذى كان له الفضل فى حل رموز الهيروغليفى ، وما زالت بقايا هذا الحصن قائمة حتى يومنا هذا على ضفة النيل شمال رشيد .

البلدة الرئيسى ، عند نهاية الطريق المؤدى اليها من الاسكندرية فى الغرب ، ومن القاهرة فى الجنوب . لقد كان هذا الحصن أهم قلاع المدينة عندما دارت حوادث هذه القصة . وشاء القدر أن يؤدى هذا الحصن واجبه قويا خالدا فى الوجود ، قبل أن ينمحى الى العدم ، وقد اكتملت حوادث القصة !..

ورغم ضخامة هذه الحصون ومناعتها فان « ابراهيم » بن طاهر بك الحاكم وكاتم أسرار الحامية كان له رأى خاص فى موقف هذه الحصون من الدفاع .. وكان رأيه يخالف « مراد باشا » قائد الحامية ، « فمراد باشا » يرغب فى الانتفاع بهذه القلاع فيجعل منها مراكز الدفاع عن المدينة ، فيوزع فيها رجال الحامية بالتساوى لصد أى هجوم يشنه المعتدى من أى اتجاه . وكن الدفاع داخل الحصون هو العقيدة العسكرية الشائعة فى ذلك العهد البعيد . أما ابراهيم فكان يلمح بثاقب نظره تطورا بعيدا فى الافق .. فهذه الحصون لن تكون الا هدفا ممتعا لمدافع الحصار الثقيلة التى اصطحبها الانجليز المعتدون معهم من بلادهم التى تتفنن فى الشر والدمار .. وجلس « مراد باشا » يستمع الى رأى ابراهيم فى مقر القيادة داخل حصن أبى مندور .. وكان الباشا يعجب بابراهيم ويجعل منه محط ثقته وسره . فتحدث اليه قائلا :

— انى أعقل رأيك يا ابراهيم ، ولكن ما العمل اذن !..

فأجابه « ابراهيم » فى هدوء واتزان :

— ان أمرا مازال يلح على خاطرى من تاريخ حروب الرسول

صلى الله عليه وسلم . وان قلبى ليحس فيه النصر والهداية .

فابتسم الباشا وقال :

ــ هات ما عندك يا ابراهيم .

فأجاب ابراهيم :

ــ أرى أن نهجر هذه الحصون ، ونشرع فى حفر الخنادق أمام رشيد ، كما فعل الرسول « صلى الله عليه وسلم » فى غزوة « الخندق » أمام « المدينة المنورة » ، وقد كتب الله له النصر على المشركين .. وأرى أن نجعل خنادقنا فى هذه الربوة العالية تجاه « أبى مندور » .

وأشار بيده الى الربوة العالية التى تجثم جنوبى رشيد .. تحف بجنباتها النخيل .. وتشرف حافتها على النيل الخالد .. وتتحكم فى الطريق المؤدى لمدخل البلدة .

ثم أكمل حديثه :

ــ سنجعل خطوط دفاعنا تأتلف من هذه الخنادق لحكمة واحدة ، فالخندق المحفور لا تنال منه نيران المدافع بقدر ما تنال من الحصون المشيدة ..

وأعجب الباشا بالفكرة ، ووافق عليها .. وهكذا وضعت « رشيد » سطرا فى « تكتيك » الحرب الحديث وهى لا تدرى !

وظل ابراهيم يشرح وجهات نظره ، ويدبر الخطط آمنا مطمئنا رغم عدد الحامية القليل ، وعتادها الساذج ..

وعندما كاد يفرغ من أمره جاءه رسول من أبيه يستدعيه لمقابلته ..

وفى الطريق ظل « ابراهيم طاهر » يسأل نفسه : ترى لاى أمر استدعاه أبوه فى هذه الساعة ؟..

ولقد خطرت على ذهنه جملة أفكار مختلفة وهو يهبط ربوة « أبى مندور » المرتفعة فى طريقه الى بيت أبيه وسط البلدة .. الا أمر زواجه من « درة » ابنة قطان باشا ، فكان أبعد ما يفكر فيه وما يتصوره . لم يكن يتوقع أن زفافه بعد أيام قلائل .. بل ولم يكن يتوقع أى انسان فى رشيد أن المدينة ستحتفل بزواج ابن حاكمها فى غضون الاسبوع .

وفوجىء ابراهيم بالامر ، ولكنه أحس رغبة أبيه الملحة فى هذا الزواج ، ووجد نفسه فى حيرة من أمره ..

ولمح أبوه حيرته وتردده ، فاضطر أن يحكى له أمر الدين ، والفضيحة التى تهدد حياته .. وأرتج على ابراهيم فى بادىءالامر .. وصمت لسانه .. واتجه خاطره الى « جميلة الرشيدى » .. وأدرك أبوه ما يدور فى ذهنه فقال له :

ـ اننى أعلم رغبتك فى الزواج من « جميلة » .. ولكنى سأخبرك بشىء ما كنت أحب أن أذكره على لسانى لأحد .. ان « جابر الرشيدى » لن يعود الى رشيد حتى ولو كان حيا يرزق ... واذا كنت فى شك من قولى فاطلب من « ابراهيم جاد الله » سميك وصديقك ، أن يطلعك على ما سمعه فى دمنهور عندما كان أهلها يقاومون حصار « الالفى » .

كان « ابراهيم جاد الله » شابا ثائرا متحمسا .. وكان سميا

وصديقا لابراهيم بن طاهر بك الحاكم .. وكانا لا يفترقان أبدا . ولا تراهما البلدة الا معا . وقد اجتمع قلباهما على حب الوطن ، وحمايته من كل غاصب أو مغير ..

وكان قد حدث منذ ثمانية أشهر فى دمنهور واقعة خطيرة .. فقد هدد المدينة محمد الالفى ــ زعيم المماليك ــ وضرب الحصار حولها ليخضعها لنفوذه ويجعل منها مقرا لقيادته .. كان الالفى يناوىء « محمد على » ويأمل فى الاستيلاء على حكم مصربتشجيع الانجليز والعثمانيين .. ورفضت دمنهور التسليم اليه . وظل يحاصرها شهرين ويضربها بالقنابل .. فتطوع نفر كثيرون من البلاد المجاورة لنجدتها والانضمام الى أهلها البواسل .. وكان أن سافر « ابراهيم جاد الله » متطوعا على رأس عدد من شباب رشيد ، لكى يشتركوا مع أهل دمنهور فى الدفاع عن بلدتهم ضد المملوك الغاصب ..

وكتب الله لدمنهور النصر فى النهاية .. وارتد عنها « الالفى » خائبا .. ورحل مقهورا الى الجيزة .. وهناك وافته منيته .. قبل أن يصل الانجليز بحملتهم الى الاسكندرية .. بأربعين يوما (١) .

وعاد « ابراهيم جاد الله » الى رشيد ليستقبله أهلها بالحفاوة والتمجيد .. وفى عودته حمل سرا محزنا من دمنهور .. فقد عرف

(١) ــ حاصر « محمد الالفى » دمنهور فى يوليو ثم فى أغسطس ١٨٠٦ واستمر حصاره لها شهرين (الرافعى ــ الجزء الثالث) .

هناك أمرا عن « جابر الرشيدى » والد جميلة . وصديق والده الشيخ جاد الله ..

وكتم السر فى نفسه لسبب لا يعلمه انسان الا هو ..

فلما ذهب اليه صديقه ابراهيم طاهــر ليستفسر منــه عن أمر الرجل الغائب لم يتحدث معه طويلا واكتفى بأن قال له :

ـ ما سمعته من والدك يا ابراهيم هو الحق .. ولكن أستحلفك بحق صداقتنا ألا تسألنى المزيد ..

وظهر على وجهه ألم كبير ..

ولم يحاول ابراهيم طاهر أن يحدثه بشىء جديد فى هذا الامر . فكان يعرف خلق زميله حق المعرفة .

وعاد ابراهيم طاهر لأبيه .. وقبل الزواج .. قبله فى غير فرح أو ابتهاج ، على غير عادة الناس عندما يقبلون على زواجهم .

وفى ذات أمسية من أواخر مارس شــاهد أهل البلدة جملين كبيرين مزينين يحملان من فوقهما « تختروانا » جميلا (١) وقد جلست بداخله أجمل نساء البلدة واثراهن .. ووقف التختروان أمام بيت الحاكم حيث انطلقت الزغاريد والاهازيج .

ودخلت درة البيت الجديد لتؤدى المهمة الآثمة التى أوعز بها أبوها اليها ، واقنعها بها بشتى وسائل الاقناع والاغراء .. وقد

---

(١) التختروان : هودج من الخشب المحلى بالصدف يستعمل لنقل العروس .



« ومن فوق الجملين « تختروان » جميل ، جلست بداخله
أجمـــل نســـاء البـــلدة واثراهن »

(١) الصورة لمشهد مجسم من المتحف الزراعى بالقاهرة .

رحبت الفتاة كذلك بهـذا الامر ، اذ كانت قد كرهت العـزلة واشتاقت نفسـها للمغامرة .. ولم تكن نفسـها التى طبعت على الجمود والانطواء فى قصر أبيها الكبير تمنعها من خيانة البلدةالتى عاشت طويلا فرق ثراها ..

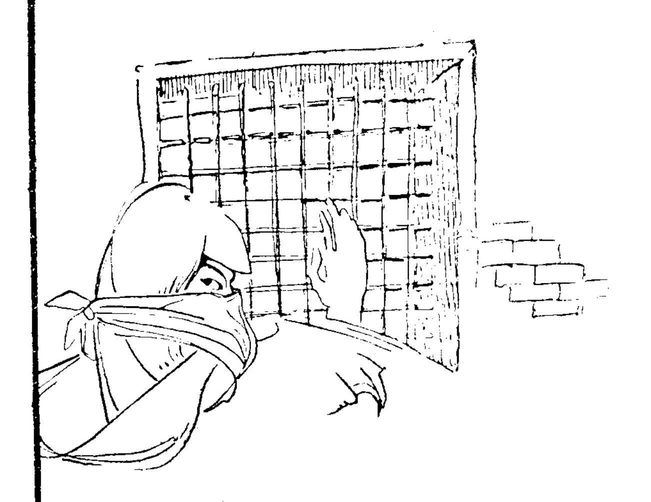
وكانت « درة » تدرك أن كل ساعة تمر بها ، لها قيمتها الكبيرة فى الأيام التالية .. فراحت من أول دقيقة تعقد صلاتها الطيبة بأهل البيت مثل « جميلة الرشيدى » ، وأم ابراهيم ، ثم طارق أصغر اخوة ابراهيم . أما ابراهيم نفسه فكان عليها أن تتودد اليه وأن تجذبه الى نفسها بحيث تحصل منه على كل ما تريد قبل آخر ليلة من شهر مارس ..

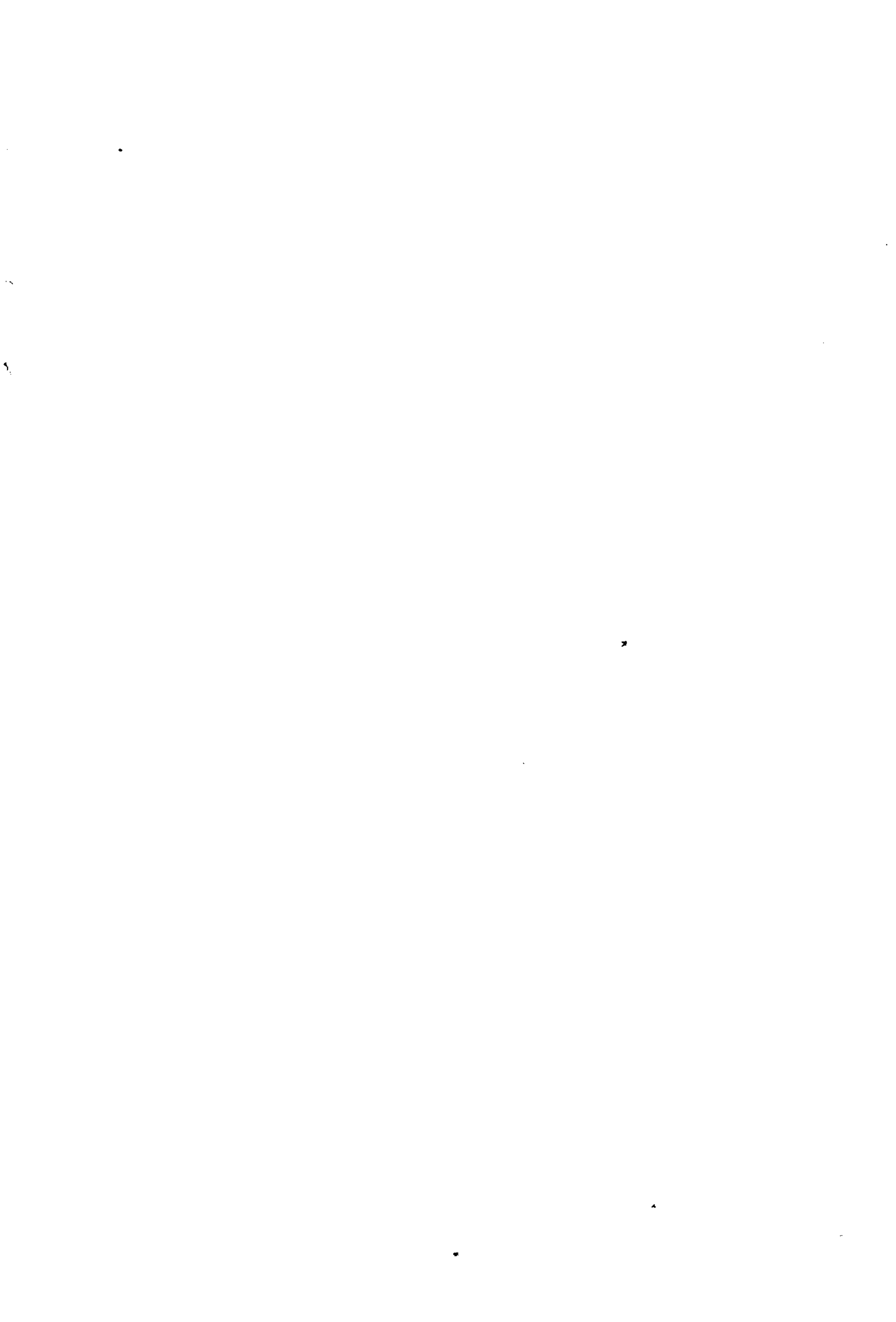
فقد كان هذا هو اليوم الذى حدده « فريزر » للاستيلاء على رشيد غدرا وغيلة ، بكل حيلة أو سبيل ، ولو أدى ذلك الى عقد زيجات مخادعة ..

وفى اليوم التالى للفرح الـكبير الذى تم فى بيت الحـاكم ، تحركت قوة غاشمة من أبى قير تحت امرة القـائد « ولنجتن » لتتربص الدوائر بالمدينة الوادعة .. واضطرت القوة للوقوف عند الحافة الجنوبية لربوة أبى مندور العالية ، وقد احتلت الحاميـة المصرية أطراف الربوة من الشمال ، وحفرت بها الخنادق ، وعزمت أمرها على الاستماتة فى الدفاع عن البلدة الحبيبة .. عند طرف النيل الخالد ..

وكان أفراد الحامية قليلى العدد .. ولكنهم كانوا كبيرى الأرادة .

الشيطان المقنّع





٥

وجاء يوم ٢٩ مارس ..

وكان الليل قد ولى ولم يبق على طلوع الفجر غير ساعات ، وكان الهلال قد احتجب منذ ساعات وراء حجب كثيفة من الغيوم المتلبدة فى جهة الغــرب ، ولم يسمع أى حس ولا صوت فى أبى مندور التى وقفت عندها الحملة الانجليزية تتربص . ومن جهة الجنوب كانت تقوم معسكرات الجنرال ((فريزر)) ، وكانت خطوات الحراس المتزنة تقطع السكون التام المستولى على تلك الجهة ..

أما فى الشمال فقد أقام مراد باشا البطل .. هو ورجاله المخلصون غير المنظمين الذين حاولوا ان يستفزوا العدو الى القتال المباشر . ولكن محاولاتهم ذهبت هباء ، وفى تلك البقعة ساد السكون أيضا كما ساد فى البقعة الاخرى ، واستولى التعب على الحراس فناموا فى مراكزهم .. كان الجميع يغطون فى سبــات عميق تلك الليلة وكان مراد باشا فى خيمته الخاصة مستغرقا فى النوم من شدة التعب بعد سهر متصل دام ليال طويلة كما نام حراسه الى جانبه .

وفى ذلك السكون المخيم بدأت حركة هادئة فى خيام الجنرال ((فريزر)) . وبدأت أمواج الاجسام البشرية تتحرك فى بطء ، فى سكون الليل البهيم وكانوا يقصــدون خيمة مراد باشا فكانوا لايتكلمون الا همسا ، وهم يتقدمون بسرعة وهدوء فى ســكون الفجر وصمته ، فكان سيرهم شبيها بزحف الافاعى الهائلة .

وقال قائل منهم بهمس : ((اسمع ياسير ولنجتون ، دع الكابتن

برسى يفاجيء الحراس ، وادخل أنت مباشرة خيمة مراد باشا فاقتل حراسه واقبض عليه .

وما ان انتهى الهمس حتى جد ((ولنجتن)) فى السير على رأس ستمائة من رجاله المختارين وكان كل منهم يلبس قميصه حتى يمكنهم أن يميزوا بعضهم بعضا حينما يختلطون بالاعداء فى أثناء المعركة ، ولم يفصل بين معسكرات ((فريزر)) ومراد باشا سوى نحو ميل من الارض السهلة المنبسطة ، وبينما كان القوم يتآمرون ويتوعدون ويدبرون الخطط كان أهالى أبى مندور مستغرقين فى نوم عميق ...

وكان سير ((ولنجتون)) وجمعه المتحرك قد قطعوا نصف المسافة ، وكان من الصعب جدا تمييز القمصان البيضاء لشدة الظلام المخيم ، حتى ليخيل الى الرائى أنهم أشباح ، ولم يبق امامهم سوى نصف ميل أو أقل حتى يصلوا بزحفهم ، هذا وقوم مراد باشا لايزالون يغطون فى نومهم .

وفى تلك اللحظة تقدم شخص من الحراس فايقظهم . وامتدت يده القوية اليهم حارسا تلو حارس ، فهزتهم هزا عنيفا ، وهو يصيح وسط الظلام ، هلموا استيقظوا فالعدو مقبل عليكم ليأخذكم على غرة ويفتك بكم وأنتم نيام .

وقبل أن يتمكن الحرس من الاستيقاظ تماما ، كانت اليد نفسها قد وصلت الى الحرس الخاص لمراد باشا وهزته بشدة وعنف ، وعلا الصوت ذاته وهو يقول : استيقظوا ، فقد وصل الانجليز اليكم .. وفى خيمة مراد باشا بدا نور ضئيل وكان الباشا مستلقيا على الارض مدججا بالسلاح كامل العدة ، فلما طرق الصوت سمعه وبدأت الحركة ، أفاق من نومه فى الوقت المناسب ووثب واقفا فلم يجد أحدا معه فى الغرفة ، ولكنه لمح ظلا مبهما لرجل طويل القامة يبرح الخيمة بسرعة زائدة ، فظن أنه فى حلم ، وأن ذلك المنظر لم يكن الا كابوسا مخيفا ولكنه وجد المعسكر قد عادت اليه الحياة .. وتجاوب نداء القتال وصلصلة السيوف

وصهيل الخيل وأوامر الضباط تلقى فى كل جهة .. ولـكنه وجد عبارات مكتوبة على الخيمة ، هذا نصها :

« هجوم ليلى .. فان ستمائة رجل يزحفون عليكم وبينكم وبينهم الآن أقل من نصف ميل »

وكان السير « ولنجتن » قد أصبح على بعد ربع ميل فسمع بأذنيه هذه الاصوات كلها وشعر بحركة الجند وهم يتأهبون ، فعلم أن تلك المفاجأة التى دبرت بروية وبمنتهى التكتم قد فشلت ، واذن فليس عليه الا أن يرجع خائبا الى معسكره اذ لم يعد فى وسعه اقتحام معسكر عدوه ، لان ستمائة جندى لايكفون لخوض موقعة حاسمة ، ولان جنود مراد باشا يحاربون ببسالة واقدام ، وارتدت الجنود كالامواج الى الخلف تجر أذيال الخيبة والفشل .

ولما وصل سير « ولنجتن » الى المعسكر ثانيا اضطر أن يعترف أمام رئيس الفرقة بفشل المفاجأة التى كانت قد أعدت معداتها بنظام دقيق .

قال سير « ولنجتن » وقد بدا الغضب والتذمر على وجهه : لقد كانت الخيام كلها فى أبى مندور تتحرك فلم أجرؤ على الهجوم ، لاننا كنا نعتمد فى الفوز على المفاجأة ، فاحتج رئيس الفرقة وأخذ يصخب ويسب ويلعن وقال :

— ومن الذى أفشى لهم الخبر ؟!

فزأر « ولنجتن » كالاسد الغاضب وقال ، لابد أن الشيطان المقنع هو الذى أنذرهم وفى الناحية الاخرى من البلدة ، كان الرجل المدعو (المقنع) يتأهب للاختفاء بهدوء كما ظهر ..

• • •

وفى اليوم التالى وقف رئيس الفرقة داخل خيمته ، هو والسير ولنجتن وأركان حرب الحملة ، وهو يهدر ويصخب كالبركان الثائر ،

وكان يقطع الخيمة ذهاب وجيئة ، ولم يجرؤ واحد على مفاتحته في الكلام حتى تكلم وحده فقال :

ـ لقد فشلنا في ست غارات الآن على مراد باشا ، يظهر انه يتلقى انذارات في الوقت المناسب .

فقال السير ((ولنجتن)) :

ـ لقد كانت كلها مدبرة تدبيرا محكما ، وكان رجالنا يسيرون صامتين كالاشباح في ليل بهيم شديد الظلام ، ولكن في كل مرة كان هناك من ينبئه بقدومنا اذ كنا نجد خيامه كلها في حركة ، فكنا نضطر الى التقهقر ، فمن غير ابليس أعطاه الانذار ؟

ـ جاسوس أمهر منك وأشد حيطة .
فصاح أحد القادة :

ـ انني أجزم بأن هناك عاملا خفيا يحرس حياة ذلك الرجل .

انقومه ـ كما أخبرنا احدجواسيسنا ـ يتحدثون عن رجل طويل القامة عريض المنكبين ، وبعضهم يدعوه بالقنع ، وهم يظنون أن القوة التي تحميهم قوة علوية .. ولكن يظهر أن أحدا لم يره ، فكأنه حقا رسول من ابليس نفسه .

ولم يكد الرجل ينتهي من قوله حتى ساد الغرفة صمت رهيب ، فاصفرت الوجوه واضطربت الشفاه ، فرسم سير ((ولنجتن)) نفسه علامة الصليب ... ان أولئك الرجال الذين كانوا يتحدثون بنلاقة وعنف ، ويطربهم قتل الابرياء غلبتهم الخرافات على أمرهم .. هؤلاء الذين يطربهم تعذيب الناس ذعروا وتملكهم الخوف ، فرددت شفاههم المضطربة صلوات كاذبة طلبا للرحمة من الله الذي كانوا يعصونه كل يوم بأفعالهم .

وحين عاد رئيس الفرقة الى الكلام كان خافت الصوت ، فقال :

ـ سواء اكان الذي أنذرهم ابليس ام غيره فهذا لايهمنا ، انما الذي يهمنا هو ان ننفذ أوامر ملكنا ونتم الاستيلاء على مصر .. وصمت قليلا ثم قال :

ـ ليس ينقصنا الا أن يكون لنا داخل المدينة جواسيس مهرة ، لكى يعرفوا كل الخطط التى تدبر .

قال ذلك ونظر نظرة احتقار الى الموجودين ، فأجابه السير «ولنجتن» بأن الجاسوس ٥٦٦ ، قد أرسل اليوم اشارة يقول فيها : « ان رشيد ضعيفة جدا ويمكن الاستيلاء عليها ويحرضنا على الاسراع ، اذ أن الابطاء يمكنهم من جمع صفوفهم » .

وقد وصل الى خبر آخر ، وهو ان محمد على باشا قد صمم على الهرب الى « سوريا » ، بعد ان راى ذلك الانتصار الباهر الذى أحرزناه فى الاسكندرية ، فهو الآن يحارب المماليك فى الصعيد .. أضف الى ذلك أنه لم يفكر فى ارسال عدد من الجيش الى « رشيد » وانى متعجب لهؤلاء القوم الذين يقاومون جيشا كبيرا وهم ضعفاء جدا ، اذ ليس لديهم ذخيرة ولا سلاح .

عند ذلك ظهر الابتسام على وجهه وقال :

ـ هذه أخبار سارة جدا ، وعلى كل حال سوف ننتهى فى مدة قصيرة من هؤلاء القوم وبعدها تصير مصر ، من أولها الى آخرها ، تابعة للتاج البريطانى .

وعند ذلك وقف الجميع اجلالا للتاج البريطانى .

أما « ولنجتن » فقد تذكر شيئا امتعض منه .. تذكر كيف سقطت صورة الاسد والتاج البريطانى فوق رؤوسهم فى غرفة « فريزر » بالسفينة منذ أسبوعين عندما هموا بشرب نخب التاج .. ولكنه راح يطرد عن نفسه هذا الخاطر المنغص .. وقال فى نفسه :

ـ لا خير فى مهمة تبدأ بالتوجس ..



المطوعون





٦

أشرق الصباح على الربوة العالية فى أبى مندور فوجدهاساكنة كأنما لم تشهد بالامس هذه الاغارات التى وجهها أعداء الحـرية الى المدافعين البواسل .. وجلس « ابراهيم طاهر » ينصت الى حديث مراد باشا فى خيمته المنزوية فى ثنية من ثنيات الارض وقد نقل اليها الباشا مقر قيادته من القلعة .

قال مراد باشا :

ـ علينا أن نتوقع هجوم الاعداء الكبير على هذه البلدة اليوم أو غدا على أكثر تقدير .. فكل المناوشات التى بدرت منهم ليلة الامس لم يكن القصد منها الا جس نبضنا ، والوقوف على مدى استعدادنا ..

وتذكر الباشا شيئا فجأة ، فاستطرد يحدث « ابراهيم » فى همس :

ـ من يكون هـذا المقنع الذى تسـلل كالشبح ليلة الامس وايقظنى من نومى وكتب هذه العبارات ؟.. لولا أن خطه ما زال موجودا على الخيمـة بالخارج لقلت أنه كابوس أو عفـريت من

الجن .. أو كنت كذبت عينى ..

وأجاب ابراهيم :

ــ انى حقا فى عجب من أمره ، وكدت لا أصدق روايته .. الا انى سمعتها من كثير من رجالنا ، لقد أجمعوا على أنه شبح طويل القامة عريض المنكبين يرتدى رداء أسود ويضع على رأسه قناعا من نفس لون الرداء .. وعندما يعدو يتحرك فى سرعة غريبة كأن أقدامه لا تلمس الارض .. لا أدرى هل هو روح فارس من آبائنا الذين قاتلوا الصليبيين على هذه الارض : فأنا لا آكاد أصدق أن بشرا يقدم على هذه المخاطرات وهو يخفى أمر نفسه ولا يفصح عن وجهه .. ان رجالنا يملؤهم الايمان منذ أن شعروا به .. ويقولون انه مهما كانت حقيقتــه فهو بشير فأل حسن من السماء ..

وعندئذ قلل الباشا وهو يبتسم :

ــ نعم ، من يدرى ؟ لعل الله أرسله الينــا عوضا عن المــؤن والاسلحة التى لم ترسل بها « العاصمة » .. لا آدرى الى متى سيظل « محمد على باشا » لا يعلم أن ميدان المعركة الحقيقى هنا فى شمال القطر وليس فى جنوبه فى الصــعيد (١) !. الا يدرى

(١) وقع هجوم الانجليز فى أبى منندور فى ٢٩ مارس ١٨٠٧ وهجموا على البلدة فى ٣١ مارس فى حين أن « محمد على باشا » ظل يحارب فى الصعيد حتى ١٢ أبريل (محمد مسعود) .

الرجل اننا لا نزيد عن مئات قليلة . وأن العدو أمامنا بالآلاف(١)؟
وفجأة انقطع الحديث على الرجلين ، فقد اقتحم الخيمة عليهم أحد الضباط وهو يجرى لاهثـا وقدم الى الباشـا ورقة كبيرة مطوية وقال :

ـ سيدى . ألقى الشبح المقنع الآن بهذه الورقه مطوية ومثبتة فى حجر صغير على أحد مواقعنا .. وكان بالموقع ثلاثة من رجالنا وقد قرأوا الورقة وأرسلوها الينا فى الحال .

وتناول الباشا الورقة وفتحها وأخذ يتلوها بصوت عال :

« بلغوا مراد باشا أن العدو يجهز ألفين من رجاله ومعهم مدافع ثقيلة للهجوم على البلدة .. القوة تتحـرك من أبى قير اليكم فى مساء اليوم .. والامضاء الصديق المقنع » ..

وانصرف الضابط وعاد « مراد باشا » يتحدث :

ـ هذا ما كنت أتوقعه . بارك الله فى المقنع المجهـول ، انه يصدق دائما .

وسوف تؤيد هذا الخبر كشافتنا فى الامام ..

وصمت الرجل برهة وعاد يتحدث فى صوت عال :

ـ ابراهيم ، لم يبق أمامنا الا أمل واحد .. المتطوعون من أهل البلدة ..

---

(٢) لم يزد مجموع حامية رشيد عن ٧٠٠ جندى مسلحين بأسلحة خفيفة ، فى حين أن حملة « فريزر » كانت مكونة من ٧٠٠٠ مقاتل أرسل منها الى رشيد ٢٠٠٠ مقاتل مزودين بمدفعين من عيار ستة أرطال ومدفعين هاوتزر بقيادة ويكوب (التاريخ العسكرى للحملة .

وخرج « ابراهيم طاهر » من خيمة القائد . وقد قفز الى ذهنه اسم صديقه « ابراهيم جاد الله » . فبعث اليه ، وأخبره أن الباشا أسند اليه مهمة قيادة المتطوعين وعليه أن يتوجه فورا الى بيت الحاكم فى المدينة لكى ييسر له هذا الامر ..

وعندما قابل « ابراهيم جاد الله » الحاكم أوصاه بجمع المتطوعين وقيادتهم وأخذ يبين له كيف أن سلامة « رشيد » بأسرها مرهونة بتضحية رجاله ..

وكان « ابراهيم جاد الله » يدرك كل كلمة ينطق بها طاهر بك الحاكم .. وأخذ ينصت اليه آمنا مطمئنا .. فقد كان ممتلئا ثقة برجال « رشيد » .. لقد شهدت السنوات الاخيرة الماضية فداءهم وبلاءهم ..

فهم الذين أقضوا مضجع « مينو » (١) منذ أعوام قريبة .. وهم الذين ثاروا فى وجه جنود « ابر كرمبى » يستعجلون جلاءهم عن البلاد ..

بل ومنهم من كان يرحل بعيدا عن رشيد ليشترك فى ثورة أو واقعة نائية .. مثلما اشترك « جابر الرشيدى » فى ثورة القاهرة

---

(١) كان « مينو » هو حاكم رشيد فى عهد الحملة الفرنسية . ولقد تزوج من احدى أسرها خصيصا ليأمن غضب البلدة .. ومع ذلك فكثيرا ما ثاروا ضده حتى أنه بعث الى نابليون يصفهم بالمكر والدهاء ويطلب منه أن يزيد من رجال الحامية الفرنسية . وقد كان خوف الرجل فى محله » فقد قتلوا عددا كبيرا من رجاله يوم ان احرق بلدة « شباس » .. (الرافعى : الجزء الثانى) .

ومثلما اشترك رجال غيره فى واقعة دمنهور .

كان « ابراهيم جاد الله » على حق فى أن يشعر بالثقة والاطمئنان !!..

وعندما خرج من بيت الحاكم الى الطريق كانت هناك عينان آثمتان تتابعا فى سيره .. وقد اختفيا خلف النافذة ذات الخشب الرفيع المعقود ..

كانت عينا « درة » بنت « قطان باشا » الخائن ..

وأخذ « ابراهيم جاد الله » يجوب أطراف المدينة ، ويتصل بأهلها جميعا ، ولم يجد أدنى مشقة فى اقناع شبابها بالتطوع . بل كثيرا ما هجمت عليه الفتيات والسيدات المحجبات من خلف أبواب الغرف يستحلفنه أن يسجل أسماءهن بين المتطوعين ..

وعندما اقترب من بيت أبيه دخل ليستطلع أحوال أسرته . وكان لم ير أهله منذ مدة طويلة ، ولما قابل أمه فرحت بعودته وعانقته طويلا والدموع فى عينيها .. وأخذت تنصت الى حديثه فى سرور ولهفة ..

وكان لابراهيم جاد الله شقيق آخر يصغره يدعى محسن . وكان الشقيقان على طرفى نقيض . فبينما يفيض ابراهيم حماسا وجدا ، كان محسن لا يعرف الا الاستهتار والمجون .. وكانت الام تحب كليهما . وان كانت تؤثر « ابراهيم » لتضحياته التى تجعله يفارق الدار كثيرا .

وكان محسن امضى ليلة الامس غائبا عن البيت فسألت الام ابنها « ابراهيم » عنه وقالت :

ـ هل رأيت أخاك محسن ؟
فأجاب قائلا :
ـ لا .. هل رأيته أنت ؟
أجابت :
ـ رأيته لحظة واحدة .
ـ وماذا قال ؟
ـ انك تعرف محسن ، فانه ابدى اعجابه بشجاعة المتطوعين فى شىء من الدعابة .

وقبل أن يبدى ابراهيم استياءه عادت الام الى الكلام فقالت :
لا تلم محسن فهو كما خلقه الله .. انه لا يبالى شيئا
ـ انه لا يعنى الا بملذاته وشهواته ، ولقد سمعت انه كان بالامس مع عدد من الماجنين يضحكون ولا يابهون لتلك المحنة التى تجتازها البلد .

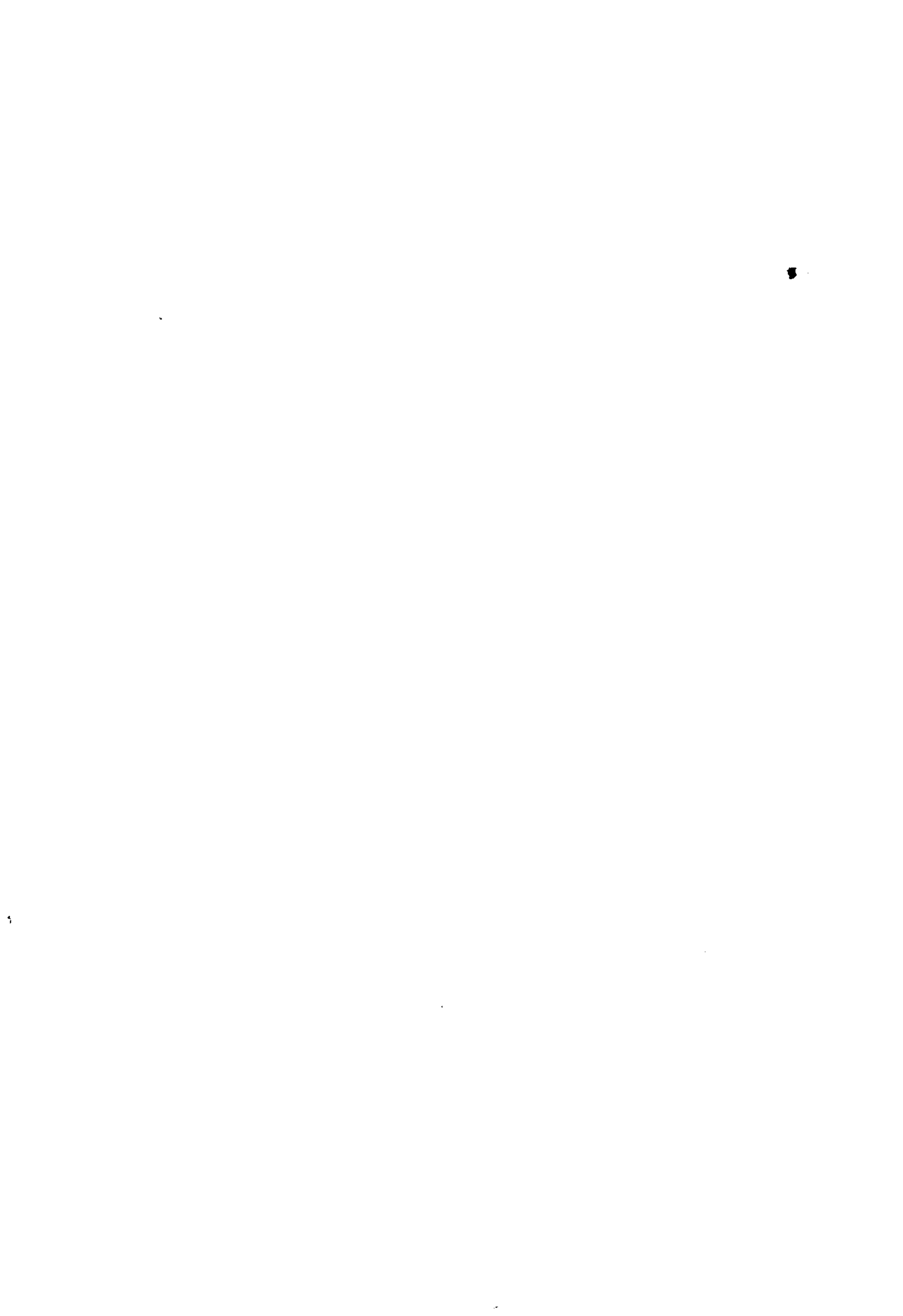
وقام الشاب ليذهب الى عمله . ويلتقى بباقى الشباب المتحمسين الذين قرروا الذهاب الى القتال ليمحوا العار عن الوطن ..

ومدت الام يدها نحو ابنها المفضل ، فجاءها ثانية وجلس عند قدميها وقبل يديها فقالت :
ـ أرجوك ياولدى ألا تقدم على عمل من أعمال الطيش ، ولا تتصرف تصرفا تندم عليه حين لاينفع الندم .
ـ لاتخافى يا والدتى ، فقد جاءتنى وعود بالمساعدة . اننى حذر كالثعلب ، ولكنى لن أثنى ركبتى للقوة الفاشمة .. اننى اقاتل عصابة السفاحين الذين انتهكوا حرمتنا وداسوا حريتنا . فان الواجب على هو أن أخدم بلادى وأبوى ..

... ثم قبل أمه وغادر المنزل مسرعا ... ولو استطاعت لاوقفته ، لان الخوف بدأ يستولى عليها

وعندما انقفل الباب من خلفه اجهشت أمه فى البكاء .. هل ستراه ثانية فى حياتها ؟.. وأخذت تلعن المعتدين الغاصبين الذين جاءوا من أقصى أطراف الارض ليثكلوا النساء وييتموا الوالدان ، ويدمروا الدور الآمنة ..

الأماكن



٧

ملأ التوجس قلب أم « ابراهيم جاد الله » منذ قدوم المعتدين.. اذ كان من المفروض أن يكون اليوم ذا شأن فى حياة ابنها الآخر محسن .. ولكن الآثمين قد أفسدوا بقدومهم كل شىء ..

وعندما بلغ تفكيرها الى ابنها الآخر تصادف أن عاد محسن الى البيت واجتاز ردهته الى غرفتها .. وفوجئت أمه بقدومه وقالت له :

ـ كنت أفكر فيك حالا قبل حضورك .

ولم يجب محسن . بل وقف واجما شاردا .. وتحسس مقعدا منخفضا وجلس عليه .

وغطى وجهه بيديه ، وجلست أمه ، وقد لفت رقبتها بشالها من البرد وأخذ محسن يفكر تفكيرا عميقا ، حتى انه نسى انه جالس مع امه .. راح يتصور الموقف ، فقد كان هذا اليوم محددا لحفلة عرسه ، ولكن البلدة أخذت بقدوم العدو اليها ، فكان من جراء ذلك تأجيل العرس الى مابعد الموقعة .. لقد كانت وداد وهى من علية القوم وابنة أحد أشراف البلدة ، ذات عينين سوداوين ناعستين وشعر مسترسل على جبينها ووجه مثل البدر وسط السحاب .. اخذت هذه الصورة الجميلة تتراءى لمحسن وتسيطر على عقله وهو جالس فى الشرفة مع والدته .. وراحت الحوادث الماضية تكر

أمامه ، فقد كان بعكس أخيه ابراهيم ، خاملا لامكانة له فى القرية .. كان جالسا ذات يوم فى مزرعة فى الطرف الشرقى للمدينة يغنى أغنية شعبية)) .

حكوا لى عن حلوه ومره   شـــغلوا فؤادى بيــــه
لا عينى لمحت حيـــــاله   ولا يوم ســمعت عليــه

ثم استولى عليه النوم ، ولكنه قام فزعا على صوت اســتغاثة ونباح كلب ، فوجد فتاة تجرى ويتبعها كلب ضخم الجسم ، فمــا كان منه الا ان هجم على ذلك الكلب وضربه بعصاه حتى جعله يفر من أمام هذه الفتاة الحسناء ، وعند ذلك شكرته الفتاة .

قائلة :

ـ انى أدين لك بالشكر .. لقد أفزعنى الكلب حتى كدت أموت خوفا ..

ـ هذا شكر كبير على واجب ضئيل ..

واعجبت « وداد » به .. وقبــل أن تهم بالانصراف . وقفت تسأله وفى عينيها شيء غريب ..

ـ سمعتك تغنى .. فهل لى ان أسألك سؤالا ؟

فأطرق « محسن » برأسه واستطردت الفتاة :

ـ ما هذا الشيء الذى شغل فؤادك دون أن تلمحه عيناك ، ولم تسمع به أذناك ؟..

وقال محسن وقد رفع رأسه لينظر فى عينيها :

ـ انه الحب ..

ـ آه .. كان يجب أن أفهم ذلك من نفسى ..

وضحكا طويلا ..

وعرفته وداد أنه الآن فى مزرعة احمد بك عاصم والدها ..وعند ذلك تآلفت روحاهما وصار يقابلها كثيرا فى تلك المزرعة بدون علم والدها .. وكان لتلك الفتاة ابن عم يدعى حسن ، مغرم بها ، وطالما عرض عليها قلبه فكانت ترفضه باباء وشمم . وقد أقسم ذلك الشاب أنه سينتقم منها فى يوم من الايام .. ورابه خروجها كل يوم فى وقت الغروب وتوجهها الى الحقل منفردة بدون علم احد من أهل المنزل ، وذات يوم اقتفى أثرها فوجدها تتلاقى مع محسن بجانب الغدير ، وعلى حين غرة خرج من مخبئه ، وفاجاهما معا ونظر الى محسن نظرة احتقار وقال له :

ـ أيها السافل الدنىء ، ماذا تفعل فى تلك المزرعة .

فقالت « وداد » :

ـ انه فى هذه الارض بدعوة منى .

ـ لا عهد لى بأن الرجال يحضرون بدعوة النساء ، وما هذا الا لص مجرم ، ولكن مابالك تدافعين عنه !

ولم يخف ما كان عليه من حنق شديد ، ولكن محسن نظر اليه والضحكة الهازلة لاتفارق فمه كما لم تفارقه نظرة الاحتقار .

عند ذلك تركهما حسن وذهب يعدو نحو المنزل ، فقالت وداد لمحسن :

ـ بالله عليك اذهب ، فانه لايلبث أن يرجع مع رجال المزرعة فيمسوك بضرر .

واستجاب محسن لنصيحتها ومضى الى منزله ، وفى اليوم التالى ذهب هو ووالده الى والد الفتاة وخطبها منه ، وحدد العرس فى هذا اليوم ولكن الاحتفال به تعطل بمناسبة هجوم العدو لاحتلال رشيد .

افاق محسن من تأملاته على صوت والده يقول له :

ـ فيم تفكر ؟ لقد جند كل شبان البلدة ليذودوا عن نسائهم واطفالهم فما بالك جالسا فى المنزل ولم تخرج لتدافع عن بلدتك مع

المدافعين عنها .. هل ستبقى طول حياتك ..
فقاطعته زوجته قائلة :

ـ لقد خرج ابراهيم وتجند فليبق محسن معى فى المنزل .. انى لا أستطيع ذلك .. اذ ماذا أصنع بعد ولدى ، وهل يلذ لى العيش فى الحياة ؟ لقد تجرد قلبك من محبتهما فتربد ان توردهما موارد التهلكة .

ـ لاتظنى ذلك ايتها الزوجة العزيزة ، فاننى لست أقل محبة لهما منك بل انا اكثر منك وطنية .. أتفضلين حياة ابنك وموتنا نحن فى ذل الاسر ورق العبودية . أم موته وحياتنا فى نعيم الحرية ؟

وصمت فجأة لان السكون الذى كان مخيما على المدينة ،قطعته اصوات اغنية شعبية وطنية وهتافات عالية :

النيـــل دا حياتنـــا	محـروس برشـــد
حنـــدافع عنـــه	ودفاعنـــا عنيـــد
تحميـــه أرواحنـــا	من شـــر الغاشـــم
ولا يشـــرب منـــه	غاصـــب ولا ظـــالم
النيـــل دا حياتنـــا	النيـــل دا حياتنـــا

حدث كل هذا ومحسن لم يتحرك من مكانه ، فقـد كان لا يابه لاحد فى الوجود .. وعاش طول حياته خامل الذكر ، فمـا الذى يجعله الان يقوم ويتحمس من كل هذه الاهوال .
وهو يتمتم بكلمات تدل على الغضب والتذمر ..

لقد نظر الى والده وهو يبتسم تلك الابتسامة الساخرةالمستهترة التى اشتهر بها فى البلدة ، فما كان من والده الا ان خرج من المنزل

وعندما خلت الام بابنها راحت تسرى عنـــه ، وجعلت تحدثه وهى تمسح على رأسه ..

ـ لا تغضب يا بنى . كل ضيق سينفرج قريبا . و « وداد » ستكون لك باذن الله .

ولكن « محسن » ظل صامتا ..

وصمتت الام كذلك .. ثم شرد تفكيرها لابنها الآخر ابراهيم.. فراحت تسأل عنه محسن وقالت له :

ـ محسن . لقد جاءنا « ابراهيم » اخوك منذ ساعة وكان على عجلة من أمره ، هل قابلته فى طريقك ؟ يبدو لى أنه تعين فى مهمة خطيرة ..

وهنا انفجر الشاب الصامت .. كان صمته كبتا لثورة حبيسة .. وخرجت الكلمات من بين شفتيه فى عصبية وغيظ :

ـ أليس هناك حديث الا عن « ابراهيم جاد الله » ؟

أليس هناك سؤال الا عن « ابراهيم جاد الله » ؟ لقد تعين « ابراهيم » اليوم قائدا للمتطوعين ! فهل يظن أنه قادر بمتطوعيه العزل من السلاح أن يصدوا عدوا مجهزا بالمدافع الثقيلة ، مدافع البارود الضخمة التى دكت أبراج الاسكندرية دكا !

كان « محسن » يحس اليوم ضيقا ثقيلا فى نفسه ، ولقد أثر فى كيانه تأجيل موعد زفافه ، كما ضايقه حديث أهل البلدة الذى لا ينقطع عن أخيه ابراهيم . فقد كان « ابراهيم » محبوبا مقدرا لديهم .. ومما زاده غضبا على غضب ما علمه من أمر العدو الذى جاء يهدد « رشيد » بمدافعه الثقيلة . وكان يعلم أن أهل «رشيد» وجندها عزل أو كالعزل من السلاح . ومن أين يأتيهم السلاح

والقاهرة تغمض عينيها عن « رشيد » !

وراحت الافكار تتلاحق فى رأسه وتتضارب كمحموم يهذى .
وعندما أفاق من ثورته قام وغادر البيت لا يلوى على شىء .

وعندما وجدت الام نفسها وحيدة انطلقت فى بكاء حار .. ولم تفق منه الا على صوت زوجها الهرم ، وقد عاد وتسلل الى غرفتها. وقال لها :

ــ يا أم ابراهيم كفى عن البكاء . انهضى واشرفى على انضاج الطعام ففى أيام الخطوب خير للانسان أن يعمل بيديه بدل أن يستسلم للعويل .

ونهضت الام وراحت تجفف دموعها .. وكادت تغادر الغرفة ولكنها وقفت واستدارت تحدث زوجها .. كانت قد تذكرت شيئا :

ــ جاد الله .. قل لى .. هل تكره ابنك « محسن » ؟.

وأجاب الرجل فى هدوء :

ــ لا يكره الآباء أبناءهم ، وانما يكرهون فيهم افعالهم الخاطئة .

وعادت تسأل :

ــ وهل يكره محسن أخاه ابراهيم ؟.

وأجاب الرجل بنفس الهدوء :

ــ لا يكره الاخ أخاه ، وانما قد يغار منه والغيرة كالنار : تضر أحيانا وتنفع أخرى .

فسألته فى دهشة :

ــ هل قلت ان الغيرة تنفع كذلك ؟

ــ نعم . فان الغيرة أول الطموح . والمتبلدون فحسب هم الذين لا يحسون الغيرة .

ووقفت أم ابراهيم تعيد التفكير فى كلمات زوجها الذى اعتادت منه أن يقول كلاما مفهوما حينا وغامضا أحيانا كثيرة .

وعاد زوجها يستحثها على الذهاب لانضاج الطعام وقد انتصف النهار .. ولكنها كانت قلقة تتمنى ألا تكف عن الاسئلة طـول النهار ، وقبل أن تخرج من الغرفة قالت :

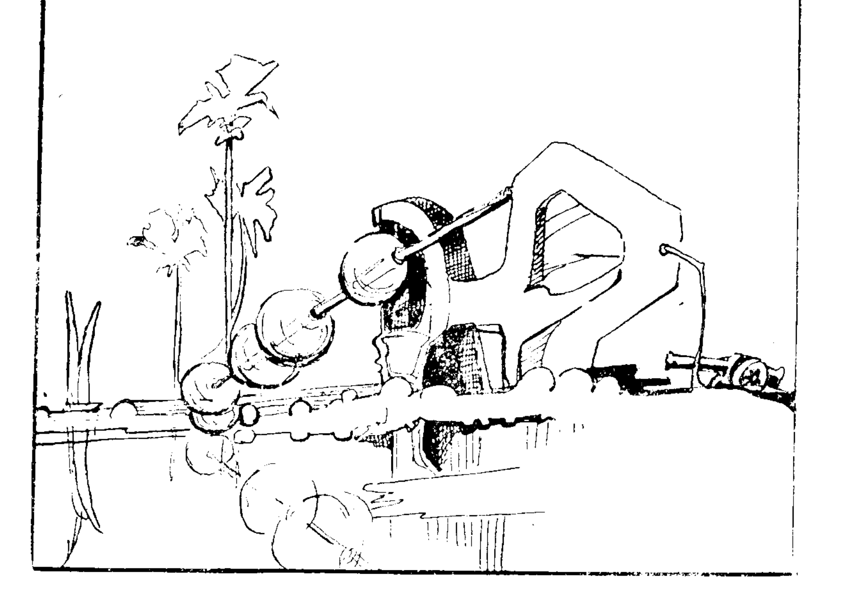
ــ جاد الله . لى سؤال أخير . هل حقا جلب الاعــداء معهم مدافع كبيرة جدا تهدم الابراج والبيوت ؟

وهنا صاح الرجل فى وجهها فى عزم وايمان :

ــ يا امرأة . هدئى من روعك واذكرى أمرا واحدا أمام عينيك . فان كان الانجليز معهم مدافعهم ، فاعلمى أن معنـــا ما هو أعلى وأكبر . هم معهم مدافعهم .. أما نحن . فالله معنا .



حبّات الخرز





٨

استطاعت « درة » بدهائها الذى الذى ورثته عن أبيها الماكر أن تحصل على كثير من الاسرار والمعلومات .. لقد مكثت حتى اليوم أسبوعا فى البيت خبرت فيه كل أهله وعرفت كيف تستدرج كل واحد منهم فى الحديث . كان الامر بسيطا لديها لا يكلفها الا أن تفتح لكل واحد منهم الموضوع الحبيب الى قلبه .

كانت تحدث « جميلة الرشيدى » عن أبيها الغائب ، وتحدث زوجة الحاكم عن ابنها «ابراهيم» فى طفولته .. أما «طارق» الصغير فكانت تشاركه لهوه وتصنع له مراكب الورق الصغيرة ..

وفى آخر كل نهار كانت تصلها طاقة كبيرة من الزهور الناضرة مع رسول من أبيها . وكانت تقول لهم لقد وعدنى أبى أن يبعث الى كل يوم ببعض زهور الحديقة التى أمضيت حياتى كلها بين أغصانها حتى صارت جزءا منى .. ولم يتطرق الشك الى ذهن أحد من البيت عن رسول الزهور .. ولم يكن هذا الرسول سوى الوسيلة لنقل الاخبار والمعلومات من بيت الحاكم ..

وكانت « درة » لا تكف عن الجلوس بجوار النافذة ترقب الوافدين الى الدار .. وعندما وقعت عيناها الماكرتان على « ابراهيم جاد الله » وهو يغدو مهرولا استرابت فى أمره وقد قدم الى بيت الحاكم فى هذه الساعة المبكرة من النهار ..

وسألت جميلة الرشيدى التى كانت تجلس قبالتها :

ـ هل تعرفين هذا الرجل ؟

وانبأتها « جميلة » عنه بكل شىء فى براءة .. قالت انها عنه ان رشيد كلها تدين للرجل بوطنيته وتضحياته .. وحكت لها عن شجاعته أمام الفرنسيين قديما وأمام الالفى حديثا .. وعرجت فى حديثها الى ذكر أبيها .. فقالت ان والدها كان يعرف أسرة جاد الله حق المعرفة .. ولقد زارها الشيخ « جاد الله » ومعه « ابراهيم » عقب عودة الاخير من دمنهور .. وقال لها الشيخ ان أسرته كلها فى خدمتها وكان الرجل يتحدث فى صدق وعطف باديين . وتذكرت « جميلة » أنها لمحت فى عينى « ابراهيم جاد الله » فى ذلك اليوم شيئا خفيا .. وسألته عندئذ :

ـ هل سمعت شيئا عن أبى ..

وتذكرت كيف ارتبك ابراهيم .. فاعترض أبوه الشيخ الحديث وقال يطمئنها :

ـ كل خير يا ابنتى .. أعاده الله باذنه سالما لك ..

وانصرف الشيخ وابنه .. ومنذ ذلك الحين وأسرة « جاد الله »

لا تنقطع عن السؤال عنها والتردد على بيت الحاكم من أجلها ..

وظلت « درة » تسمع اليها فى انتباه وشغف .. حتى انتهت من قصتها فراحت تستدرج جميلة فى الحديث قائلة :

ــ انه رجل وطنى حقا .. ولعلهم يستفيدون منه بشىء فى هذه المرة أمام المعتدين ..

فأتمت جميلة حديثها قائلة فى همس :

ــ بلغنى أن النية معقودة عند الجميع على تعيينه قائدا للمتطوعين . ولابد أنه قادم اليوم من أجل ذلك .

وكانت « درة » تنصت الى حديثها وهى تلعب بأصابعها بحبات من الخرز الملون تخرجها وتعيدها الى كيس صغير من الحرير .. كانت تتظاهر بأنها لا تعير التفاتا كبيرا الى الحديث عن المتطوعين وجاد الله .. أما فى خبيئة نفسها فكانت كلها آذانا مصغية .. وكانت تستعيد الحديث والاسماء فى نفسها لتحفظها عن ظهر قلب . وأقبل طارق الصغير نحوهما وهو يصيح فرحا :

ــ لقد قلت لابى اليوم أنى أرغب فى التطوع .. وقال لى أبى عندما نبدأ فى كتابة أسماء القادمين سنكتب اسمك ..

ولمعت عينا « درة » بنت قطان .. ولكنها ظلت تعبث بالخرز . وأمالت رأسها على النافذة لترقب الطريق من جديد خلسة من وراء الخشب المعقود ..

وأخذ المتطوعون يفدون على بيت الحاكم ..

وظلت جميلة تحكى عن أبيها ، وكانت تتهلل كلما أقبل متطوع

جديد يدون اسمه فى بيت الحاكم .. وخطر لها أن تعدهم ..
وعند الغروب بلغ عدد المتطوعين الذين أحصتهم « جميلة » ٧٣٠ متطوعا وقالت « درة » :
ــ يبدو أنه لن يأتى بعد الآن متطوعون آخرون ..
ولكن جميلة لمحت ثلاثة رجال يفدون الى الدار معا .. فصاحت قائلة ٧٣٣ .. عند ذلك أخرجت « درة » ثلاث حبات من الخرز وأودعتها الكيس الصغير ثم أقفلت الكيس وأحكمت وثاقه وألقته من يدها جانبا ..
ونظرت اليها جميلة وقالت :
ــ انت تعبثين كل يومك بالخرز .
فأجابت « درة » توا :
ــ انى أتسلى ، فزوجى بعيد عن الدار منذ أيام .. وهذا الخرز حبيب الى نفسى .. وكنت فى قصرنا أقضى اليوم اما فى الحديقة أتعهد الزهور او فى الدار اتسلى بالخرز .
وجاء ميعاد وصول طاقات الزهور .. ودخلت احدى خادمات القصر الى غرفة « درة » وقدمت الطاقة وقالت :
ــ ان الرسول الذى يحملها يسأل سيدتى هل ستبعث بشيء الى والدها ؟
فأجابت « درة » نعم سأرسل لابى بهذا الكيس . وانتظرى قليلا حتى اكتب له رسالة شكر رقيقة .
وقامت جميلة وخرجت من الغرفة ووقفت ترقب ردهة الدار .

ووقعت عيناها على الرجل الذى أحضر الزهور .. وكان يجول بعينيه فى أرجاء المكان .. ولم يرق لها منظر الرجل .. وأحست بضيق فى قلبها .. ثم دخلت غرفتها . وعندما همت باقفال الباب لمحت الخـادمة تمر أمامها وفى يدها كيس الخـرز .. وعنـدئذ استوقفت الخادمة هامسة . وأدخلتها غرفتها .. كان قلبها يحدثهـا طيلة اليوم بشىء لا تدرى كنهه .. لقد بدأت لا ترتاح الى أسئلة « درة » الكثيرة . ولكنها لا تدرى لماذا !..

.. وأمسكت بالكيس من الخادمة وفتحته .

ووجدت ورقة صغيرة مطويةفيه عليها بعض الحروف الاجنبية ..

وخطر لها أن تحصى حبات الخرز .. كأن شيئا قويا يدفعها فى داخلها الى أن تأتى هذا الامر ..

ووجدت فى داخل الكيس سبع حبات كبيرة حمراء .. وعددا آخر من الحبات الزرقاء الصغيرة .. وأحصت عددها فوجدته ثلاثا وثلاثين حبة من الخرز الازرق . لقد ذكرها هذا الرقم بشىء .. ان عدد المتطوعين بلغ اليوم سبعمائة وثلاثة وثلاثين .. يا الهى .. هل هذا يعنى شيئا ؟ أم هو محض اتفاق .

وخطرت لها ذكرى غريبة .. فعندما كانت صغيرة فى بيت أبيها فى بولاق بالقاهرة كانت ترى أباها وأعوانه الثائرين يتراسلون بنوى التمر .

وراحت تسأل نفسـها .. هل « بنت قطان باشـا » زوجـة « ابراهيم » ابن حاكم رشيد جاسوسة خائنة ؟..

واستجابت جميلة الى هاتف فى أعماق نفسها يأمرها بأن تحتجز الكيس والورقة ولا ترسل بهما الى قطان باشا ..

ولم تفاتح « جميلة » « درة » بشىء وعزمت ألا تبوح بشكوكها الى أحد من أهل الدار حتى تستوثق من الامر بنفسها ..

وفى صباح اليوم التالى جلست « جميلة » تتحدث مع « درة » فى غرفتها .. وقالت « درة » :

ـ ألم يتوافد متطوعون آخرون بالليل ؟

وهنا أجابت « جميلة » متصنعة الهدوء :

ـ بلى . سمعت من « طاهر بك » نفسه أنه جاءنا ليلة البارحة مائة وخمسة متطوعين .

ـ أوه . هذا عدد كبير .. يا ترى كم سيصل عدد المتطوعين من أهل البلدة ؟..

وأجابت « جميلة » وهى ترقب « درة » :

ـ من يدرى . انهم كثيرون على أى حال .

وصمتت « درة » وراحت تلهو بالخرز من جديد . وأمسكت بيدها حبة كبيرة حمراء وخمسا من الحبات الصغيرة الزرقاء . وأودعتها كيسا صغيرا .

ولم تستطع « جميلة » أن تخفى نظرة بدرت من عينيها لتستقر فى عينى بنت الخائن الكبير ..

لقد وعت الآن كل شىء .. كان حدسها صائبا .. ولم تكن

« درة » بنت قطان باشا الا جاسوسة للاعداء فى بيت الرجل الذى لديه كل الاسرار ..

وعزمت « جميلة » أمرها على شىء .. والتفتت الى « درة » وقالت لها :

ــ « درة » تحضرنى قصة غريبة عن أبى . سأرويها لك فان الحديث عن أبى أحب حديث الى نفسى .

وابتسمت « درة » وأخذت تنصت . وقالت جميلة :

ــ كان ذلك فى مارس ! نفس الشهر الذى نحن فيه الآن ! ولكن فى عام ١٨٠٠ .. أى منذ سبع سنوات تماما .. هل تذكرين هذا التاريخ ؟ لا أعتقد ، فانك كنت صغيرة وكنت فى رشيد . أما أنا فأذكره جيدا مثل كل انسان عاش فى القاهرة فى هذا التاريخ وشهد ثورة المصريين على الفرنسيين وقائدهم كليبر .. كنا نقطن أنا وأبى ببولاق .. وكان أبى يدير مصنعا للباد الطرابيش فى الظاهر . أما فى داخل البيت فكنا نعد البارود .. هل أخذت بالك ؟

ــ نعم . نعم . انى أسمع جيدا .

وهنا احتد صوت جميلة وقويت ملامح نبراته . وقالت :

ــ اذن دعى هذا الخرز جانبا فانه لن ينفعك بعد اليوم بشىء ..

.. كانت « درة » تظن فى جميلة السذاجة .. ونسيت أن المحن قد علمتها الكثير . وأخذت « جميلة » تكمل قصتها :

ــ كنا نرتب خطتنا لليوم الموعود ٢٠ مارس . وكان علينا أن نبلغ من حين الى آخر عن عدد قطع البارود التى نصنعها سرا .

فكان يعطينى أبى صندوقا صغيرا به عدد من نوى التمر ، وعدد من الثمار انقله الى أحد أعوانه ، وكانت هذه هى طريقة المراسلة . فالنواة تمثل واحدة من قطع البارود ، أما الثمرة فكانت ترمز الى مائة قطعة . هل أخذت بالك يا « درة » .

وعندئذ سقطت حبات الخرز من أيدى « درة » وتجهم وجهها .. وحدقت طويلا فى عينى « جميلة » .. وقالت لها فى خوف وتساؤل:

ــ جميلة . ماذا تقصدين بهذه القصة ؟..

ولحظت جميلة الاضطراب على « درة » .. وقالت لها وهى تحدجها بعينيها فى صلابة وقوة :

ــ أقصد انك جاسوسة خائنة للوطن ..

• • •

وفى الوقت الذى اكتشفت فيه جميلة سر ابنة الخائن « قطان » كان الكولونيل « ويكوب » (١) فى طريقه الى رشيد . وكانت الجياد تلهث وهى تجر مدافع الحصار الثقيلة فوق الرمال ، وأمامها كان يسير ألفان من جنود الاعداء ينتزعون أرجلهم من الارض انتزاعا .. كانت الطريق أمامهم طويلة مضنية . ولكن كان يدفعهم الاثم ، ويخدعهم الوهم ..

أما « ويكوب » فكان يحلم بالنصر الزائف عند الارض التى

---

(١) قاد « ويكوب » الحملة على رشـــيد فى ٣٠ مارس ١٨٠٧ (تاريخ الحملات) .

يقع عندها مفتاح النيل الخالد .. لقد وضع الجنرال « فريزر » فيه كل ثقته . فقد فشل « ولنجتن » قبله فى جميع اغاراته على الحامية المصرية فى « أبى مندور » .

وقال له « فريزر » هذا الصباح :

ــ ان القوة التى معك تكفل سقوط المدينة وتسليمها بغير عناد أو اشتباك .. انى آمل أن تكون أول رجل يدخل أول مدينةمصرية عند نهاية النيل .. فأنت الذى ستتحكم فى النهر من شماله ..

وظل « ويكوب » يجد فى سيره ، وعيناه شاخصتان نحو النيل المقدس .

وعندما بلغ « آبا مندور » اجتمع « بولنجتن » فوجده كئيبا مغتما .. وأخذ الاخير يقص عليه أمر الحامية المصرية الصغيرة التى امتلأت اصرارا وعنادا .. وعندما قص عليه أمر الشيخ المقنعضحك « ويكوب » طويلا واعتبرها دعابة طريفة .. وقال فى استخفاف :

ــ اليوم يجب أن ننتهى من أمر هذه البلدة الصغيرة ..

وعنــدئذ شرعوا فى وضع المدافع الثقيلة فوق الربوة العالية وجعلوها جاهزة لضرب قلعة « أبى مندور » وهدم أسوار المدينة .

وتحركت قواتهم وأحاطت بالاسوار الغربية والجنوبية للبلدة .

وعندما انتهى المعتدون من اتخاذ أوضاع المعركة . قال «ويكوب» « لولنجتن » :

ــ أعط أوامرك ليستعد الرجال ، ولا تعط أى أوامر بالضرب حتى تصلنا الاشارة المتفق عليها من « العميل ٥٦٦ » ..



البلد الأمينة

٩

حاولت « درة » أن تراوغ وتنكر الحقيقة فى بادىء الامر .. ولكنها ازاء اصرار جميلة الرشيدى وبأسها لم تستطع الفتاة الغرة أن تقاوم طويلا ، فاعترفت بكل شىء وهى تبـكى .. قالت ان الانجليـز اسـتطاعوا أن يخـدعوا أباها وان يغـروه بالمساعدة فى اعادة الاستقلال لوطنه « آرمينيا » اذا سهل لهم أمر احتلال البلدة . وأجابتها جميلة أن ما فعلته هو الخيانة العظمى بعينها للوطن فى هذه المحنـة العصيبة .. وأن أقل جزاء لهـذه الخيانة هو قطع الرقاب ..

وكادت « جميلة » ترق للفتاة البائسة الآثمة التى كانت أداة طيعة فى يد أب مخاتل مخدوع .. ومالت « درة » تستعطفها قائلة :

ـ استحلفك يا جميلة بأبيك الذى أدعو الله ان يعيده اليك .. أن تتركى لى أبى . أما اذا قتلتموه فاقتلونى معه .. ولا تدعونى أعيش وحيدة من بعده .. وصمتت جميلة برهة وقالت للآثمة :

ـ اسمعى يا ابنة قطان .. ان الآباء هم اسمى من فى الحياة ..

ولكن هناك ما هو اسمى حتى من الابوة .. انه الوطن .. فهو أغلى منا جميعا .. وفى أثناء الحديث خطرت فكرة على ذهن جميلة فالتفتت الى « درة » وقالت :

ــ ان الدافع الذى دفع أباك لخيانةوطننا حبه هو أيضا لوطنه . وهذا يجعلنى أعيد التفكير فى جرمه ، وانى على استعداد لان اكتم سركما فى نفسى ولكن على شرط واحد ..

ــ قولى وانا رهن امرك .

ــ أطلب منك أن تعاونينى فى خديعة الانجليز .. فهم يثقون فيما ينقله أبوك اليهم . فاذا أمكننا أن نعطيهم بيانات مضللة عن طريق أبيك فقد ينفعنا ذلك كثيرا .

وأجابت « درة » توا فى حماس واخلاص وهى مستمرة فى البكاء :

ــ انى على أتم استعداد لتقبل هذا الشرط فورا ..

ــ والآن سأختار من يدبر الامر بنفسه بعد أن أحصل منه أولا على وعد بعدم ايذائك وايذاء أبيك .

وقامت « درة » وانهالت لثما على جبين الفتاة ويديها .

وأخذت جميلة تفكر فى شخص تستطيع أن تدبر معه هذا الامر .

واتجه تفكيرها الى أن تخفى السر عن ابراهيم طاهر زوج « درة » بل تخفيه عن كل أفراد بيت الحاكم .. وكان لها ثمة قصد من وراء ذلك ... وتصادف ان عاد « ابراهيم جاد الله » قائد المتطوعين الى دار الحاكم بعد قليل .. فاستصوبت فى نفسها

ان تختاره هو لكى ترتب معه أمرها .. فمازالت تذكر ما أبدته أسرة جاد الله من رغبة فى مساعدتها ..

وطلبت مقابلته بحجة أن تسأله شيئا عن أخبار أبيها الغائب .

ولما انفردت به فى احدى غرف الدار الكبيرة قالت له :

ــ انى أقصدك فى أمر خاص يا ابراهيم .. فهل أطمع فى معونتك؟

وبدا الاضطراب على وجه ابراهيم جاد الله فى بادىء الامر ، فقد حسب أن جميلة ستكلمه عن أبيها .. ولكن عندما فهم منه أن الامر بعيد عن ذلك حمد الله فى نفسه ووعد أن يضع خدماته رهن أمرها كوعــده الذى أبداه ذات يوم .. وراحت تحــكى « جميلة » له قصة « درة » وحبات الخرز ورسول الزهور وكل خيانات « قطان » وابنته التى اعترفت بها « درة » ثم أطلعته على كيس الخرز والورقة المطوية ذات الكلمات الاجنبية .

وثار « ابراهيم جاد الله » فى بادىء الامر على الباشا الخائن وابنته وقال لها :

ــ أنهما لا يستحقان الا الاعدام ..

وعندئذ قالت له جميلة :

ــ لك حق فى أن تغضب ، فمثل خيانتهما لا تستحق حقا الا قطع الرقاب . ولكن ماذا لو أمكننا أن ننتفع بهما وهما على قيد الحياة . ففى وسعنا أن نجعلهما يضللان الاعداء وبذلك نرد فى صدورهم سلاحهم الذى كانوا سيطعنوننا به ..

كان كلام « جميلة » منطقيا معقولا .. وكانت « جميلة » ذات

مركز كبير فى قلبه اجلالا لابيها الغائب . وقبل الرجل . ووعد أن يفكر فى الامر على أن تراقب جميلة « درة » جيدا الى أن يعود اليها .. وعندما هم بالانصراف أعطته جميلة الورقة المطوية وقالت له :

ــ ابراهيم ، ثمة أمر آخر .

ــ نعم .

ــ هل تعدنى بأن يظل هذا الامر سرا بيننا .

ــ أعدك .

وخرج ابراهيم جاد الله من عندها وهو يقول فى نفسه :

ــ انها ذكية جريئة حقا .. بنت لابيها !..

ثم أراد « ابراهيم » أن يستوثق من أمر الورقة المطوية .. فاتجه بذهنه الى أجنبىعجو يدعى « العجوزينى » . وكان يدير حانة على شاطىء النيل يرتادها الاجانب الذين يمرون برشيد .

وذهب « ابراهيم » الى حانة « الثغر » (وكان هذا اسمها) .. فلما لمحهالعجوز استولتالدهشة عليه .. كان « محسن جاد الله » هو الذى اعتاد ان يتردد على هذه الحانة بين الحين والآخر .. أما أن يأتى ابراهيم أخوه الى هذا المكان ، فذلك أمر يثير الدهشة . ولكن سرعان ما ذهبت عن الرجل دهشته ، عندما أعطاه ابراهيم تلك الورقة ليترجم له كلماتها .. وأخذ العجوز يتلو ما بها بصوت عال :

« أرسل لك بحبات الخرز هذه رمزا لحبى ووفائى .. ولو انك

أعددتها لوجدت قبلاتى اليك بعددها .. فالحبة الحمراء ترمز الى مائة .. أما الزرقاء فترمز الى واحدة فحسب .. ان شوقى يزداد يوما عن يوم .. انتظر غدا المزيد » .

وفهم ابراهيم المعانى الحقيقية التى تقصدها الكلمات . وأخذ الورقة من الرجل العجوز وشكره . ورجاه أن يبقى أمرها سرا لديه ..

وعندما انصرف ابراهيم دخل العجوز الى زوجته وهمس فى أذنها وهو يغمز بعينه :

ــ خبر غريب ! لقد سرت عدوى الحب الى ابراهيم شقيق محسن جاد الله .. ففغرت فاها .. وقالت والدهشة تملأ وجهها :

ــ يا الهى .. « ابراهيم جاد الله » .. لا أصدق !!

وانطلق « ابراهيم جاد الله » يعدو الى بيت الحاكم ووجده يجلس فى مجلس خاص يضم مراد باشا قائد الحامية ، و «ابراهيم طاهر » ابنه ، فدعوه ليشترك معهم فى الحديث .. وقال مراد باشا :

ــ لقد استوثقت الكشافة فى الامام أن جنود العدو يربو عددهم على ألفين ومعهم أربعة مدافع ثقيلة .. كم بلغ عدد متطوعيك يا « جاد الله » ؟..

ــ لقد بلغوا ألفا وسبعة ..

ــ حسنا . ان العدو لا يدرى شيئا عن هذا العدد . ولكن هناك أمرا واحدا ، لن نستطيع أن نضع هؤلاء المتطوعين لا فى الخنادق ولا فى القلاع ! أليس كذلك يا « ابراهيم طاهر » ؟

فأجاب « ابراهيم بن طاهر بك » الحاكم و « كاتم آسرار » للقائد :

ـ بلى . هو كذلك . فلو أقاموا فى القلاع القديمة لدمرتها المدفعية عليهم . واذا احتلوا الخنادق فليس لديهم من السلاح ما يردون به اقتحام العدو ..

وقال « مراد باشا » :

ـ نعم . ونحن نتوقع هجوم الانجليز على مواقعنا فى الاربع والعشرين ساعة التالية ..

فسأل الحاكم :

ـ هذا صحيح . بماذا تشيرون اذن ؟

وصمت مراد باشا ثم قال :

ـ الحق انه شيء محير ، وانى أفكر كيف نؤخر هجوم العدو لبضعة أيام ، حتى نستطيع أن ندرب هؤلاء الرجال ونزودهم بالسلاح والمؤن التى قد تأتينا من القاهرة ..

وتدخل الحاكم قائلا :

ـ يدك والارض من القاهرة . فمازال « محمد على باشا » فى الصعيد .. والظاهر أن اليأس بدأ يدرك الباشا الكبير .. والا لفكر أن يرسل الينا ما ندافع به عن أنفسنا منذ أسبوعين ، والاعداء بالاسكندرية ، و « أبى قير » !

وخيم الصمت على الجميع ، واستغرق كل منهم فى تفكير عميق ..

وكان ابراهيم جاد الله صامتا طول الوقت لم يتحدث بشيء .. وعندئذ قطع الصمت بقوله :

ــ لدى فكرة .

فاتجهت اليه جميع الابصار ..

واستمر فى حديثه قائلا :

ــ اننا لا نستطيع أن نؤجل هجوم الاعداء ، ولكننا نستطيع أن نبعث اليهم بمن يضللهم ويخدعهم .

فسأل الحاكم :

ــ ماذا تعنى بقولك نستطيع أن نبعث اليهم ؟ من هو الذى نبعث به اليهم وكيف ؟

فأجاب جاد الله :

ــ أستميحكم المعذرة أن كتمت من الامور بعضها فانى مرتبط بوعد . ولكنى أؤكد لكم أن عندى من يستطيع تضليل الاعداء وخداعهم .

واحترم الرجال وعد زميلهم . وعاد الصمت يخيم عليهم من جديد ..

وعندئذ انبرى الحاكم يتحدث فى حماسة :

ــ هل تقول حقا ان لديك من يستطيع أن يضللهم ؟

ــ نعم ..

ـ اذن أبعث للانجليز من يقول لهم أن الحامية ستترك البلدة ، والاهالى سيرحلون عن المدينة ، والحاكم لن يبقى بها ، لان جيشكم كبير ومدفعيتكم ثقيلة . ونحن نخشى تدمير المدينة .. وستجدون البلدة خاوية على عروشها فى خلال ساعات قلائل . اذهب الى صاحبك الذى على اتصال بهم لينبئهم بذلك ..

وصاح القوم وتهامسوا . ونظروا الى الحاكم طويلا . كان الرجل يتحدث فى صدق وجد ..

وسأل الجميع فى وقت واحد :

ـ هل سنفعل ذلك حقا يا طاهر بك ؟

فأجاب الرجل :

ـ ليذهب أولا « ابراهيم جاد الله » لصاحبه بيخطر الاعداء بذلك . وأما الذى سنفعله حقا فهو آت باذن الله . وكل آت قريب .

وانصرف ابراهيم جاد الله . ولم يشأ أن يخبر الحاكم أن صاحبه الذى على اتصال بالعدو هو صهره ، والد زوجة ابنه ..

وفى عصر يوم ٣٠ مارس تلقى « ويكوب » من العميل ٥٦٦ اشارة تفيد بأن حامية المدينة ستفر الليلة . ولن يبقى بها رجل واحد للمقاومة .. حتى الحاكم سيترك المدينة ويعبر النيل الى ضفته الشرقية ويرحل بعيدا ..

وفى الغروب لمحت كشافة العدو سفن المصريين تنقل الرجال والنساء والاطفال الى الشاطىء الشرقى . وظلت السفن رابضة عند الشاطىء البعيد ولم تعد ..

وعندما تأكد « ويكوب » تماما من خلو البلدة أحس الفرح والزهو .. ان مفتاح النيل سيكون بعد لحظات قلائل فى قبضة كفه ..

واعطى الرجل أمره بالضرب على قلعة أبى مندور الخالية .. ايذانا باحتلال البلدة وانطلقت القذيفة الاولى مدوية مرعدة .. واهتزت جدران القلعة وخرب متهاوية على الارض بعد أن ظلت تصد المعتدين قرنين ونصف قرن من الزمان (١) .
.. كان « ابراهيم طاهر » على حق عندما قال ان هذه القلاع لن تصمد لمدفعية الاعداء !

وتهدم السور الكبير الذى يحيط بالبلدة من الجنوب .. وعاد الصمت من جديد يطبق على البلد الامين .

ومن خلال الفرجة التى أحدثتها المدفعية فى السور لاحت البلدة خاوية مهجورة أمام « ويكوب » .
وبذلك انفتح السبيل أمام الاعـداء الى « رشيد » .. وأمر

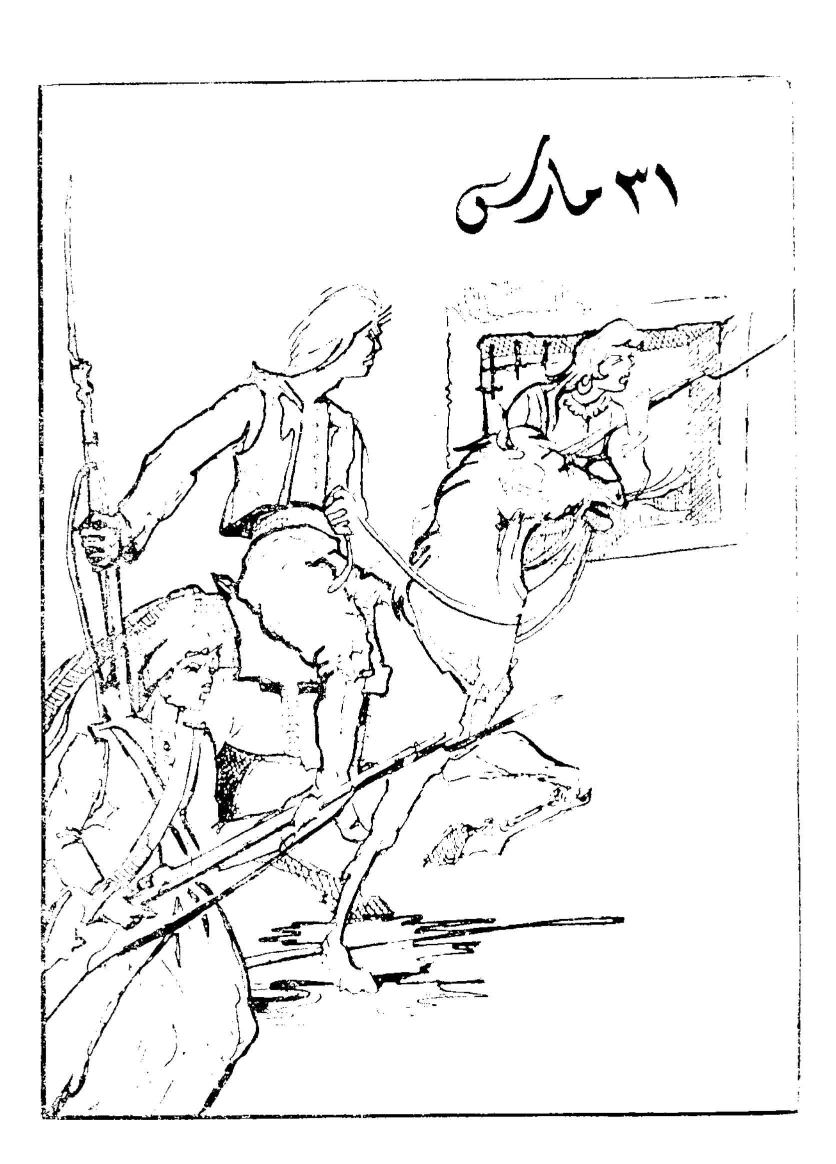
(١) أقيمت هذه القلاع فى منتصف القرن الخامس عشر . ولم يبق منها الآن برشيد سوى اطلال حصن قايتباى فى شمال البلدة .

« ولنجتن » الجنود بالتقدم ، فشرعوا ينحدرون كالسيل من الربوة العالية تجاه المدينة .. ولم يجدوا أثرا للحامية المصرية فى طريقهم .. كانت قد اختفت كما يختفى الشبح فى الظلام .

وظن « ويكوب » أنه ظفر بالنصر الذى يحلم به « فريزر » .. وغرته الامانى ..و اعتقد أن مفتاح النيل بلغ أطراف أكفه .. ومن فوق الربوة العالية بصرت عيناه صفحة النهر الخالد ..

وكان النهر هادئا وعميقا .. وكانت البلدة كالنهر فى هدوء أعطافها . وعمق أسرارها ..

واغتر قائد الاعداء بالهدوء .. ولم يدرك ما خبأته البلدة من أسرار فى أعماقها المكينة .


۳۱ مارس



١٠

دلف جنود الأعداء الى المدينة خــلال الفرجة التى أحدثتهـــا مدفعيتهم الغاشمة فى السور الكبير .. وراحوا ينطلقون منها الى طرقات المدينـــة . يبحثون كدأبهم عن سلب ينهبونه .. فاقتحموا بعض الدور وانتهكوا حرماتها .. وعبثوا بالمخازن والمحال .

. ولما وجدوا البلدة كالخاوية على عروشها تحرروا من سلاحهم ليلتمسوا الراحة بالجلوس والنوم فى أعطافها . وكان قد أعياهم الجهد الشديد وأمضهم تعب المسير على الرمال الناعمة .

أما قادتهم ــ وعلى رأسهم « ويكوب » ــ فلم يفتهم أن يدعوا أنفسهم الى وليمة فاخرة فى دار القنصلية الانجليزية برشـــيد .. ولعبت الخمر والتعب برءوسهم فاستسلموا للنوم والراحة .. ولم يكن فى حسبانهم أنهم ينامون فوق بركان ثائر ، تضطرم نيرانه من تحتهم فى أعماق الدور التى تطل عليهم من أكناف المدينة .

وفى فجر ٣١ مارس ١٨٠٧ (١)

• • •

(١) أقام أهالى رشيد فى عام ١٩٥٦ نصبا تذكاريا لشهداء هذا اليوم الخالد .

ذلك اليوم العابس أوله ، الباسم آخره ، لقى الانجليز أكبر خدعة يمكن أن يمنى بها جيش محارب ..

..فهناك فى رشيد وتحت سفح « ربوة أبى مندور » العالية ..

وفى أحضان النهر الهادىء العميق ..

وفى أقبية الدور العميقة ، كان يرتقب قدوم الانجليز .

ألف متطوع ...

و ٦٠٠ جندى ...

وأكثر من ألف سيدة وفتاة وشيخ هرم ...

وكانوا يكتمون أنفاسهم الى حين .. لينقضوا على العدو الآثم المتسلل الذى جاء زاحفا من أقصى أطراف الارض ليحتل دورهم الآمنة .. يدفعه الجشع والوهم ..

لقد عزم حاكم المدينة أن يضللهم قبل أن يضللوه . وأن يوقعهم فيما حفروه بأيديهم .. كانت الفرجة التى نقبها لاعداء فى السور هى المنفذ الى حتفهم ! فالسفن والقوارب التى تمات الى الشاطىء الشرقى البعيد ، لم تكن تحمل الا الشيوخ والاطفال والنساء الضعاف .. وظن العدو أن الحامية والاهالى قد رتحلوا عن البلدة واسلموها لهم .. وقوى ظنه رسالة « قطان » المضللة . واستمر الحاكم يصدر أوامره الحازمة والاهلون يطيعون ويقدرون . وأمر ألا تعود المراكب الى شاطىء البلدة حتى يوئس رجاله من الطمع فى النجاة (١) .

---

(١) من وقائع التاريخ : الرافعى ــ الجزء الثالث .

ثم وضع رجال الحامية فى منازل متطرفة من المدينة ليختبئوا بأسلحتهم فى أقبية الغلال .. ومخازن المياه الرطبة ..

أما المتطوعون فالتزم بأمرهم ابراهيم جاد الله . ولم يثنهم عن أمرهم أنهم عزل من السلاح ومن الذخيرة ..

وقبعوا فى الاقبية .. وكانت أسلحتهم هى أيديهم

وكتموا أنفاسهم .. وكان الصبر هو ذخيرتهم ..

أما النساء فأبين الا أن يشاركن أزواجهن وأبناءهن شرف النزال ..

وبقى معظمهن فى المدينة داخل الدور ..

حتى أم « ابراهيم جاد الله » بقيت الى جوار زوجها الهرم ، وأمسكت بعصا الحديد التى كانت تقلب بها نار الطعام نهارا ..

ولم يدعن وسيلة من وسائل الدفاع الا وأمسكن بها ..فانتزعن قطع الحديد والخشب من أثاث الدور .. وقمن يعددن الزيت المغلى .. ويمسكن بالاوانى وقطع النحاس الثقيلة .. وكتمن أنفاسهن . مثلما فعل الرجال ..

ومضت ساعات الليل طويلة متثاقلة .. وصمتت المدينة الا من دقات قلوب أهلها القابعين فى الاقبية .. متحفزين ليثبوا على العدو عندما يبلغ آذانهم صوت اشارة الهجوم ..

ولما أوشك الليل أن يرحل عن البلدة الكاظمة غيظها ، تسلل « ابراهيم جاد الله » من أحد الاقبية الرطبة وبلغ ردهة « مسجد زغلول » . ومد بصره الى المئذنة العالية وكان عليه أن يصعدها

حتى طرفها .. ليعطى اشارة الهجوم ..

وهنا حدث مالم يتوقعه ابراهيم ، بل ما لم تتوقعه البلدة كلها .. فقد اتفق أن كان هناك ثلة من جنود الاعداء يربضون بالمسجد وكانوا نياما عدا واحد منهم ظل مؤرقا فى ردهة المسجد .. فلما لمح ابراهيم جاد الله وهو يخطو وسلاحه على كتفه ، أدرك أن أمامه رجلا مسلحا من المصريين ، فاختبأ وراء أحد الاعمدة وأطلق النار عليه عيلة وأرداه قتيلا .. وفى الوقت الذى سقط فيه « ابراهيم جاد الله » شهيدا مضرجا فى دمه ، خرج شبح رجل مقنع متشح بالسواد من احدى زوايا المسجد المظلمة ، وكانت عيناه قد رأت كل شىء .. فهجم على ظهر الجندى المعتدى وطوق عنقه بيده ، وطعنه بخنجره فى ظهره وقتله ، ثم أجهز على زملائه الذين كانوا غارقين فى سباتهم ..

واتجه الرجل المقنع الى « ابراهيم جاد الله » ، ولحقه وهو يجود بأنفاسه الاخيرة ونظر المقنع الى وجه ابراهيم وبدا عليه انه عرف صاحبه .. فاحتضنه بين يديه .. ولثم جبينه ..

وانحدرت دموعه من خلف القناع ..

وفتح « ابراهيم جاد الله » عينيه ونظر الى الرجل وأخذت تخرج الكلمات منه فى حشرجة .

ـ المئذنة .. الفجر .. الاذان ..

وكان القناع بدأ يسقط عن وجه الرجل . فلما رأى ابراهيم عينى المقنع صرخ قائلا :

ـ لقد عرفتك .. أنت .. أنت ..

ولم يتم كلماته ! ومات بطل رشيد شهيدا .. قبل أن يشهد ذروة نصره بدقائق .. وأعاد الرجل المقنع قناعه الى وجهه من جديد .. وبدأ يفكر فى الكلمات التى سمعها من ابراهيم قبل وفاته ..

المئذنة .. الفجر .. الاذان ..

وفهم الشبح المقنع شيئا . وصعد المئذنة ..

وانطلق صوته أمينا راسخا .. ليس غريبا عن آذان أهل البلدة . يصيح فى حماسة وايمان ..

ـ الله أكبر .. الله أكبر ..

وكانت « الله أكبر » هى اشارة الهجوم على العدو . الاشارة التى ظل يرتقبها .. طول الليل .. المتربصون، والكاظمون الغيظ..

الله أكبر على كل غاصب متكبر ..

والله أكبر فوق المعتدى ..

وانشق جوف الارض عن أبطال رشيد المتحفزين ، ولم تمض لحظات حتى دوت البنادق .. فانفض صمت الليل الرهيب .. وانقلب الى صخب وغضب .

وانبعثت النيران الى صدر جنود الاعداء النائمين .. والقادة السكارى ..

وانطلق المتطوعون يجهزون على الغادرين .

يستخدمون المدى ، والعصى ، والطوب ، وأيديهم ..

وألقت النساء بالزيت المغلى فوق وجوههم .. فصرخ جنود الاعداء وكأنهم النساء .. ونزلت الخسائر فادحة بالمعتدين ..

فأطلق أفرادهم سيقانهم للريح،وقد ألقوا بأسلحتهم وراءهم .. وفى طريقهم الى السور الذى دلفوا منه منذ ساعات ، كانت تدوس أقدامهم اشلاء جثث قتلاهم .. كان كل همهم الطمع فى النجاةمن الجحيم الذى أحاط بهم فجأة ..

وهنـاك فى أقصى المدينة من الجنـوب كان يكمن لهم رجال الحامية ، بعد أن اختفوا فى خنادقهم .

وهناك أعملوا فيهم الاسروالقتل .. وادبر الباقون هربا ، وخلفوا المدينة من وراء ظهورهم ، وقد ولوا منهـا فرارا ، وملئوا منهـا رعبا (١) ! وبلغ المتطوعون دار القنصلية ، ودلفوا اليها .. وقتلوا القادة المخمورين .. « ولنجتن » و « وبرسى » وغيرهم .

أما « ويكوب » فقد اختبأ فى مخزن للغلال فى أسفل الدار . ثم تسلل منه الى نفق طويل يمتد من الناحية الاخرى حتى يبلغ ميدانا فسيحا يطل على جامع زغلول . وحار الرجـل الذى كان يحلم منذ ساعات بالفوز والنصر .

---

(١) بلغت خسائر الانجليز فى هذا اليوم ١٧٠ قتيلا ، ٢٥٠جريحا ، ١٢٠ أسـيرا أى أكثر من ربع القـوة التى غزت البلدة (التاريخ العسكرى للحملة) .

وجعل يفكر فى الهرب . ولكن قبل أن يصل عقله المتعب الى رأى ، لقى أمامه شبح رجل مقنع يخرج اليه من النفق كأن الجدر قد انشقت عنه ..

وأغمد الشبح خنجره فى صدره وقتله ، وقبل أن يموت «ويكوب» أيقن أن الشبح المقنع ليس دعابة ، وقد سخر منه بالامس أمام « ولنجتون » فى « أبى مندور » .

وفى غمضة عين اختفى الرجل المقنع وبدا خيـــاله يغيب عنـــد الجنوب . فى الطريق الذى سلكه جنود الاعداء هاربين منذقليل.. كان المقنع يتبعهم أينما ساروا كظلهم ..



أول وعد





١١

عندما أرسلت الشمس أشعتها على البلد الامين ، كان المتطوعون يسوقون طابور الاسرى الى دار المحافظة .. وسار أفراد العدو يطأطئون رؤوسهم عارا وخزيا .

أما قتلى العدو فامتدت ايدى جماعة من جنود الأرناؤوط الحامية فأجهزت عليهم وفصلت رؤوسهم عن أجسادهم .

وتضايق الحاكم كثيرا لما بلغه هذا الامر ، فأرسل يطلب أقدم ضابط من الارناؤوط ليسأله فى هذا الشأن ، فلما وقف الضابط أمام الحاكم أجاب على كلماته الثائرة قائلا :

ـ هل نسى سيدى ما مثله المغيرون من الفرنسيين والانجليز من قبل برجالنا . هل غاب عنكم ما فعل مينو بسليمان الحلبى[1] وأسرة جابر الرشيدى .. هل غاب عنكم ما فعله هؤلاء الانجليز بالاسكندرية .. وكيف أحرقوا دورها الآمنة ؟؟

---

(١) حكمت محكمة الفرنسيين على سليمان الحلبى باحراق يده ثم بوضعه على الخازوق وبقاء جسمه معلقا حتى تنهشه الطيور الجارحة . أما باقى أعوانه فقطعت رقابهم (ادوار جوان)

ـ لا لم يغب عن ذهنى شىء من هذا .. ولكن نحن مؤمنون، ولكن أرحم منهم !

فأجاب الأرناؤوطى :

ـ أمر آخر يا سيدى . اننا فصلنا رؤوسهم حتى يمكنكم أن ترسلوا بها الى القاهرة .. فان « محمد على باشا » سوف يكون فى حاجة اليها هناك ..

ولقد حدث ما فكر فيه الارناؤوطى .. فأرسلت الأسرى الى القاهرة فى القوارب ، وشحنت معهم رؤوس تسعين من زملائهم القتلى .. ومن بينها رأس « ويكوب » .. كان « فريزر » يحلم بأن يسيطر « ويكوب » على النيـــل .. فسخر منهما القـــدر .. وسيطر النيل على رأسه ..

وعندما وصلت الرؤوس القاهرة ، وضعت على أطراف الحراب ، وطيف بها فى الشوارع حول بركة الازبكية .. ولما رأى «محمد على باشا » الرؤوس بعينيه ـ وكان قد عاد من الصعيد ليدير هربه الى « سوريا » ـ عدل عن الهرب .. وارتفعت الروح المعنوية بين الشعب . وأعلن « عمر مكرم » نقيب الاشراف الجهاد .. وأمر طلاب الازهر بترك مدارسهم ايذانا بطرد العدو من البلاد بأسرها (١)

وفرحت رشيد بالنصر فى اليوم الباسم آخره ، وفرحت ثانية لما علمت بما دار فى القاهرة ..

---

(١) الجبرتى

وراح الحاكم بعد المعركة يطوف بالاهلين فى رشـــيد ليهنئهم بالنصر وليقدم العزاء الى أسر الشهداء الذين استشهدوا بالقتال.. ويضمد الجراح التى خلفتها المعركة فى القلوب ..

وعاد الرجل الى بيته وجلس هادئا آمنا .. وجلس أمامه ابنـــه الصغير « طارق » يعبث بمراكبه الصغيرة .. وبين الحين والحين كان يجرى الصغير ليعانق أباه ويعلق يديه برقبته ، ثم يعاود لهوه. وكان « مراد باشا » جالســـا أمام الحاكم يشهد هـــذا المنظر . فضحك طويلا وقال يداعب الحاكم :

ــ يظهر أن « طارق » يقوم من حين لحين ليتأكد من أن رقبتك مازالت سليمة يا « طاهر بك » .

وضحك الرجلان .. ان أهالى رشيد لا ينسون الدعابة حتى فى أيام المحن .. وصمت طاهر بك طويلا .. ثم قال لمراد باشا :

ــ سأقص عليك يا باشا قصة غريبة عن « طارق » هذا .. فقد تدهش انه هو الذى ألهمنى تدبير الامس .

ثم استطرد وهو يستجمع ذكرياته :

ــ عندما جاءت زوجة ابنى ابراهيم الى هذا البيت علمت « طارق » هذا كيف يصنع قوارب الورق ، وفى ذات يوم صنع منها عددا كبيرا ، وأخذ يعبث بها . ثم رأيته وهو يتحـــدث مع أســـطوله الصغير ، فضحكت طويلا فى نفسى وقلت له : « لعله أســـطول طارق بن زياد » وليس ابن طاهر . ولما ذهبت ليلتها للنوم حلمت بقصة « طارق بن زياد » وكيف أحرق مراكبه ليوئس جنوده من

الطمع فى النجاة . وجعلت من يومها أفكر فى « ابن زياد » هذا . وعجبت لنفسى كيف استطاع « طارق » أن يهزم الاندلسيين وعددهم مائة ألف ، بجيشه الذى لم يتجاوز اثنى عشر ألفا (١) .. وعندئذ خطر لى أن أنقل مراكب البلد بعيدا الى الشاطىء الشرقى عند مجىء الانجليز .

فعجب « مراد باشا » وقال مبتسما :

ــ وبذلك تكون قد ضربت عصفورين بحجر واحد .. تخدع الانجليز فتجعلهم يظنون أننا فررنا من أمامهم ، وفى الوقت نفسه تجعل أهل « رشيد » يبقون فى دورهم ثابتين لا يفكرون الا فى الذود عنها ..

واستطرد الباشا قائلا :

ــ حقا أنه يوم مجيد !.. من يدرى فقد يقرن ٣١ مارس باسم « رشيد » كما قرن جبل طارق بابن زياد على مر الايام ..

وأغرق الجميع فى الضحك ..

وعلى أثر هذا الحديث تذكر « طارق الصغير » آمرا فجرى مهرولا خارج الغرفة ، تاركا لعبه ! وهنا دخل ابراهيم طاهر ابن الحاكم ، وكان يبدو عليه الحزن الممض :

ــ أبى .. لقد وجدنا ابراهيم جاد الله مقتولا فى داخل مسجد زغلول !

---

(١) فتح طارق بن زياد الاندلس فى القرن الثامن ، وظلت اسبانيا تخضع للعرب قرابة ثمانية قرون . وأرقام الجيوش بعاليه من التاريخ .

وبكى الرجل . وبكت رشيد بأسرها ، وحزنت على البطـل الشـهيد ..

ووجم الحاكم والقائد ..

واستطرد ابراهيم طاهر يقول :

ـ أبى .. ألم تلحظ أن صوت الاذان لم يكن صوت « ابراهيم جاد الله » ؟

ـ بلى ، يا ابنى . أدركت ذلك .. ولكن من الذى اذن يا ترى ؟

يبدو لى أن صوته ليس غريبا عن أذنى ..

وهكذا قال كل أهل البلدة جميعا .. ان الصوت الذى أدى الاذان لم يكن غريبا عن آذانهم ..

وعاد طارق يجرى لاهثا وقال صائحا :

ـ أبى أبى . انى لا أجد أثرا « لدرة » ولا « لجميلة » .. أين هما ؟..

وقال الحاكم :

ـ هذا حق أين هما .. انى لم أر بالامس سوى جميلة وكانت معنا فى القبو .. أما « درة » فلم أرها منذ فترة طويلة .. أبحث عنهما يا ابراهيم فقد أنستنا المعركة حتى نساءنا !..

وأكد ابراهيم طاهر كلام أبيه . ثم قال وقد تذكر شيئا :

ـ والدى .. ألم تذكر أننا سمعنا صرخة داخل القبو عنـدما انطلق الاذان .

ـ بلى .. سمعت صياحا أعتقد أنه صدر من جميلة الرشيدى ..

ـ نعم وأنا أيضا سمعتها تقول شيئا غريبا .. لقد قالت ما معناه : لقد عاد أبى .. لقد عاد أبى .. أنه هو الذى يؤذن . ولم يلتفت أحد منا اليها لاننا انشغلنا بالمعركة ساعتئذ ..

ـ انه هذيان منها يا بنى .. فكثيرا ما كانت تأتى « جميلة » مثل هذه النوبات فى صغرها بعدما فقدت أباها وأسرتها .

ـ هذا عجب ! واذا كان « ابراهيم جاد الله » لم يؤد الاذان بنفسه ، فمن الذى اذن !!

ـ لا أدرى يا بنى ..

وما كان لاحد أن يدرى ! فقد كان الاذان سرا لا يعلمه سوى اثنين . الرجل المقنع نفسه ، و « ابراهيم جاد الله » الذى مات واندفن معه السر !..

وخرج « ابراهيم » بن طاهر بك الحاكم يبحث عن جميلة فى القبو .. وهناك وجدها مغمى عليها .. وتحت رأسها وسادة وفوقها ملاءة بيضاء .

وصحت الفتاة .. وعندما فتحت عينيها قامت صارخة ..

ـ أين هو .. أين هو ؟..

فسألها ابراهيم . من تقصدين ؟

ـ أبى !. أبى لقد عاد أبى !. « جابر الرشيدى » .. انه هو الذى أدى الاذان . لقد جاءنى الى هنا . لقد رأيته بعينى . أين هو ؟.

وحملها ابراهيم الى غرفتها . وأخذ يهدىء من روعها .. وغابت فى النوم من جديد . وعند الغروب استيقظت « جميلة » ،وكانت قد ملكت بعض عافيتها . وأخذت تتحدث فى هدوء وكل أهل البيت ينصتون اليها من حولها ..

قالت الفتاة وهى تجلس فى فراشها :

ـ أنتم لا تصدقوننى ، ولكنها الحقيقة .. ان الذى أذن الأذان هو والدى بعينه . أقسم أنه صوته ونبراته . ولقد جاءنى وانا نائمة فى القبو .. وضمنى الى صدره . ووضع تحت رأسي الوسادة كما وضع فوق جسمى الملاءة البيضاء ، ولا أدرى من أين جاء بهما .

ثم ارتفع صوتها صائحة :

ـ ان أحدا منكم لم يغطنى ، ولم يسند رأسى .. أليس كذلك ؟

ونظر الجميع بعضهم الى بعض .. ولم يقل واحد منهم انه هو الذى فعل ذلك . واتجهت الانظار الى ام ابراهيم زوجة الحاكم . لكنها مطت شفتيها . ولم تجب . كانوا ينتظرون منها أن تحدثهم بشىء . فخاب ظنهم ، وتساءلوا فى نفوسهم عن الذى زار الفتاة وهى نائمة .

واستطردت الفتاة قائلة :

ـ ألا تذكرون صوت أبى ؟. أنى أعرف أن « ابراهيم جاد الله » هو الذى كان مفروضا أن يؤذن الليلة . فهل هو الذى أذن ؟.. ابعثوا به الى وانا أسأله . وسوف يؤيد قولى . ابعثوا به الى .

ووجم الحاضرون . وأطرقوا برؤوسهم .. ولم يجرؤ أحـــد منهم أن ينبئها بالفاجعة . لقد فقدت هذه الفتاة كل أهلها من قبل .. واليوم يلحق بهم صديق وفى لهم .

.. ولمحت « جميلة » ما فى أعينهم .. وفزعت .. وغضت وجهها بيديها وقالت :

ــ هل مات هو الآخر ؟..

وراحت تبكى بكاء مرا .

ولما هدأت قليلا من بكائها . مال عليها ابراهيم طاهر وقال وهو يغض من صوته :

ــ هل رأيت زوجتى « درة » يا جميلة ؟...

وصمتت جميلة ... أنها تعرف أين « درة » فهى التى خبأتهـــ منذ عصر الامس حتى لا تهرب أو يفتضح أمرها . لقد خطر لها أن محسن شقيق « ابراهيم جاد الله » يمكنه أن يؤدى لها هذ الامر .. فكل عائلة جاد الله لا ترفض لجميلة طلبا حتى محسن الذى عرف باستهتاره .. فلما أرسلت اليه « جميلة » جاءها وطلبت منه أن يخبىء « درة » فى مكان أمين حتى تنتهى المعركة .. وأن يرقبها جيدا . ثم رجته الا يبوح لانسان بهذا السر . فوعـــده الرجـــل ..

ومن الغريب أن محسن الذى دأب فى حياته أن يستهتر بالوعود صمم فى نفسه هذه المرة أن يحترم هذا الوعد .. ومن الغريب أن هذا الوعد الاول الذى تمسك به محسن ، كان سببا فى قلب حياته رأسا على عقب !!


انتقام

يلحظ أحد منهم جثة الباشا الثرى الملقاة على الارض الا عند ظهر اليوم .. عندما جاء جنود الارناؤوط .

وتهامس الناس .. ما الذى جعل قطان باشا يذهب لمقابلة الانجليز فى القنصلية !. ولم يكن أحد يعلم سر « الجاسوس ٥٦٦ » سوى ابنته « درة » و « جميلة الرشيدى » ، ورجل مات هو « ابراهيم جاد الله » .. أما محسن فلم تحك له « جميلة » حقيقة القصة .. ولم يسألها محسن شيئا .. وانما أدى واجبه صامتا وقد وعد الا يبوح بشىء ..

ولكن ترى الى متى سيظل محسن محتفظا بهذا السر ؟

لقد وقع ما لم يكن فى حسبان الجميع ..

ولم ير محسن فى حياته يوما أسوأ من هذا اليوم .. ولم تتوال المحن عليه بقدر ما توالت منذ ذلك التاريخ ..

فعندما اصطحب محسن «درة» الى زوجة العجوز صاحب الحانة لمحه حسن عاصم — ابن عم وداد عاصم خطيبته — وكان واقفا بباب الحانة .. وكانت « درة » محتجبة الوجه .. وظهرت من تحت حجابها خصلات من شعرها الاصفر الجميل ..

وابتسم « حسن عاصم » ابتسامة صفراء وأسر فى نفسه سوءا.

لقد أقسم « حسن عاصم » ذات يوم أن ينتقم من « وداد » التى رفضت الزواج منه لتقترن بهذا المستهتر الماجن .. والآن قد سعت اليه فرصة الانتقام وحدها .. اليست الاقدار هى التى تعاونه بكل وسعها فى فسخ هذا الزواج ؟ لقد تأجل هذا الزواج

وحده مرة عند مقدم الاعداء .. والآن وقد رحلوا عن البلدة ؛ هاهى الفرصة تواتيه لتأجيله الى الابد !

وانطلق « حسن » يعدو فرحا الى بيته ، تملأ صدره نشـوة الانتقـام ..

وكان أن دارت المعركة بالليل .. وانتهت مع الصباح ..

واشتركت أسرة عاصم فى قتـل جنود الانجليز .. حتى ان « وداد » استطاعت أن تقتل واحدا منهم كان يختبىء بحديقـة قصر أبيها تحت نافذتها .. اطلقت عليه النار من احدى البنادق التى يحتفظ بها « عاصم بك » فى بيته ..

ونام الجميع فى ضحى اليوم بعد انتهاء المعركة، وفرار الاعداء.

ولما استيقظت « وداد » وجدت ورقة مطوية ملقاة على أرض الحجرة تحت نافذتها المفتوحة ..

ولفتت الورقة نظرها ، فقامت وفتحتها لتقرأها وهى تتثاءب.. واحمر وجهها وغضبت .. وأعادت قراءة الورقة من جديد ..

كان مكتوبا بهـا ..

« اسألى خطيبك « محسن » أين أمضى ليلة المعركة ؟

« دعيه يقول لك من هى المرأة ذات الشعر الاصفر

« التى قضى معها الليل فى « حانة الثغـر » !

« لقد ضرب خطيبك فى ذات يوم كلبا مسعورا ، وقتلت

« أنت ليلة الامس واحدا من جنود الاعداء ..

« فاسأليه هل قتل احدا منهم بالحانة بالامس ؟ أم

وأخذت الخواطـــر تدور سريعة متلاحقة فى رأســها .. حتى تذكرت « درة » لقد أوصت محسن أن يخبئها فى مكان أمين ، وأن يحتفظ بالامر سرا فى نفسه وقد وعدها بذلك .. وتساءلت هل سيفى بوعده ؟ انها تشعر أن كل أسرة جاد الله أخـــوة لها يحفظون عهدها .. حتى محسن برغم ما يتقوله الناس عنه !

ولم تمض ساعة حتى عادت « درة » الى الدار .. وجرت نحو «جميلة » وهى تبكى قائلة :

ــ هل لديك أخبار عن أبى يا « جميلة » ؟.. لقـــد كانت ليلة الامس مروعة .

وأخذت « جميلة » تطمئنها .. ثم سألتها كيف قضت الليلة ؟ فحكت لها « لها درة » :

ــ لقد أخذنى « محسن » الى زوجة « ينى » العجوز صاحب « حانة الثغر » ، فأمضيت الليلة معها فى غرفتها .. أما محسن فقد ظل مترقبا الليل كله مع العجوز فى ردهة الحانة ولم ينم أحد منا تلك الليلة.. فكانت طلقات الرصاص تبلغ آذاننا مختلطة بالصراخ.

وأغمضت الفتاة عينيها وأخذت تبكى وقالت :

ــ يا الهى . لماذا يحاربون ؟ لماذا يعتدون ويسفكون الدماء .؟ أهكذا يكرهون السلام !!

وسألتها «جميلة» :

ــ وكيف محسن ؟ ..

ــ بخير . يبلغك سلامه .. لقد رأيته يبكى طويلا .. ساعة ان

أنبأه العجوز « ينى » بمقتل أخيه « ابراهيم جاد الله » ..

قفزت « جميلة » فوق الفراش واقفة عندما سمعت هذا النبأ.. وحاولت أن تصرخ ولكنها امتنعت ووجمت ..

لقد تعلمت من المحن أن الاحزان لا ينفع الصراخ معها بشيء.. فانثنت وجلست . ووضعت رأسها بين ركبتيها .. وغابت فى بكاء طويل مكبوت ..

وبدأت « درة » تقلق على أبيها ..

ولكن قلقها لم يدم طويلا !. فسرعان ما جاءنا نبأ مقتله هو الآخر .. لقد عثروا على جثته فى مكان غريب من البلدة .. عثروا عليها بين جثث قادة الاعداء فى دار القنصلية ..

.. لم يدر قطان باشا بأمر الخديعة التى لعب فيها أهم دور وهو غافل .. وعندما دخل الانجليز «رشيد» ذهب لمقابلتهم هناك فى المساء ليشاركهم حفلهم (١) وابتهاجهم بالنصر .. ولما حانت ساعة الهجوم .. سمع الانجليز دوى الرصاص ، فأدركوا موقفهم .. عندئذ نظر « ولنجتن » الى « الباشا » والشرر يتطاير من عينيه وقال له : أنت كذبت علينا . وقتله بالرصاص ! ..

ووقع الرجل على الارض وانكفأ على وجهه.. وهجم المتطوعون على الدار وقتلوا القادة المخمورين وهم يحاولون الفرار .. ولم

---

(١) جاء فى التاريخ ان قنصل رشيد دعا قادة الانجليز الى حفل صاخب ابتهاجا بالنصر مساء دخولهم رشيد (مسعود) .



١٢

أعاد أبراهيم طاهر سؤاله على جميلة وقد ظن أنها لم تسمعه :

ـ هل رأيت « درة » يا جميلة ؟.

وصمتت « جميلة » ولم تعرف كيف تجيب .. هل تكذب؟ انها لا تستطيع أن تحدثه بالحقيقة .. فهى لا تريد ان تفشى سر«درة» الى زوجها . وقد وعدتها بذلك وتحيرت .. ماذا تقول اذن ؟..

وتدخلت الصدفة لكى تنقذ « جميلة » من الموقف .. فقد دخلت الخادم تعلن ان مراد باشا يرغب أن يذهب توا مع ابراهيم لأبى مندور ...

لقد وردت الاخبار الى الباشا بأن « كشافة » الحامية عثرت على مدفعين ثقيلين تركهما الاعداء وراءهم فوق الربوة العالية ...

وكان أحد المدفعين هو الذى أحدث الفرجة الكبيرة فى سور المدينة وهدم حصن « أبى مندور » ...

وجلست « جميلة » تفكر فى أمر الصوت الذى حمله الاذان اليها .. وكذا فى أمر الرجل الذى زارها عند الفجر وكانت نائمة وحيدة فى القبو .. انها واثقة فى نفسها انه هو أبوها ...

« انه كان منشغلا بما هو أهم ؟ ..

« مما يؤسف حقا ان « وداد » عاصم ستتزوز نذلا عربيدا

الامضاء «ممن يحب لك الخير والسعادة» ..

وبكت « وداد » .. وملأها الغيظ والغضـــب .. وفى البيت المجاور لبيتها كان حسن ابن عمها يضحك ملء شدقيه ..

حاولت « وداد » ن تطرد شبح هذه لورقة من مخيلتها وان تعدها هذرا صبيانيا من أحد الكارهين لمحسن ، ولكن يبدو أن الظروف كلها قد اتفقت ضد الرجل فى هذا اليوم . .

فقد همست زوجة « ينى » العجوز فى آذن احدى معارفها عن أمر محسن والسيدة التى اصطحبها معه الى الحان .. وطلب منها أن تكتم هذا السر ..

وسرعان ما طار الخبر من سيدة الى أخرى ومن بيت الى بيت. وكل من تحكيه كانت تطلب من صاحبتها أن تعده سرا وألاتذيعه.

وفى كل مرة ينقل فيها السر كان يتطور وفقا لاهواء الحاكية والسامعة معا .. حتى بلغ فى نهاية الامر «وداد» شنيعا مجسما الى درجة أن تضاءل ما قرأته من كلمات الورقة المجهولة !

وتألمت «وداد» طويلا فى نفسها من «محسن» .. وعزمت فى نفســـها على أمر ! .

سوف تسأل محسن أين قضى ليلة الامس .. ومن من الناس كان معه ..

فاذا لم يعطها اجابة صحيحة شافية فسوف ترفض الزواج منه!

وأرسلت اليه تسأله .. وصمت «محسن» ولم يجب ...

وفى هذا اليوم بلغ «محسن» مقتل أخيه «ابراهيم جاد الله» ..

وفى هذا اليوم بلغه رفض «وداد» وأبيها للزواج منه ..

وفى هذا اليوم قرر الشيخ جاد الله ألا يعيش ابنه محسن معه فى بيت واحد ...

فقد بلغت الاشاعة الكريهة الشيخ .. وبينما كان القوم يشيعون جنازة ابراهيم جاد الله البطل ، كان بينهم من يحكى عن قصة «محسن» فى الحانة هو والمرأة ذات الشعر الاصفر ..!

ويتعجب السامع فيقول : يا الهى .. حتى فى ليلة المعركة ..!

ورغم هذا الظلم الكبير الذى نال من قلب محسن، فقد استمر صامتا لا يحدث أحدا بشىء .. لقد وعد «جميلة» وكان أول وعد فى حياته .. وصمم أن يحفظ هذا الوعد مهما كلفه من ثمن .. وكلفه هذا الوعد كثيرا .. سمعته ، حبه ، وبيته ! وغادر دار أبيه لايلوى على شىء .

وعندما ذهب الحاكم ليقدم العزاء للشيخ « جاد الله » التفت اليه الشيخ وقال فى صوت قوى هادىء :

ــ لا يا طاهر بك .. لا تعزنى فى ابراهيم ابنى .. ولكن عزنى فى محسن .. ان محسن هو الذى مات من حياتى .. أما ابراهيم فلا تحسبنه مات ، بل هو حى يرزق عند ربه .

ومنذ هذا اليوم خيم الحزن والصمت على أسرة جاد الله واتشحت الام الحزينة بالسواد ..

وراحت البلدة تحتجب من خلفه .. وتوارت قلاع السفن فى الشمال .. وبعد ساعات ألقى نفسه وحده فى الافق الرحيب ..

لا تقع عيناه الا على أرض خالية جرداء كقلبه ونفسه !

ولم تكن هذه الارض الا مسرحا لتحرك المغتصبين من الاعداء، ولبعض الاعراب الرحل . واستبد به التعب .. فجلس عند جذع نخلة صغيرة .. وغلبه النعاس .. فنام وقلبه مفعم بالاسى ..

وحل الظلام .. وتسلل البرد الى أطرافه .. وبدأ يفيق من النوم .. فلما فتح عينيه وجد أمامه ثلاثة رجال مدججين بالسلاح .. كانوا من العرب الرحل وأجفل فى بادىء الامر وقد حسبهم من رجال الاعداء .. ثم حمد الله فى نفسه ..

وحدثه الرجال .. لقد ظنوه هم أيضا جنديا متخلفا من رجال الاعداء الهاربين .. فلما عرفوا أنه من أهالى « رشيد » أخذوه معهم الى كوخهم على شاطىء احدى البحيرات .. وهناك أطعموه وأكرموه .. وهناك عرف أغرب سر من الاسرار .. كان هؤلاء الرجال يعملون تحت أمرة رئيس يعرف بالصديق المقنع .. وهم يغيرون النهار والليل على قوافل الاعداء ومراكزهم . ويخطفون منها الجنود ويأسرونهم . ولقد أسروا اليوم ستة رجال من الانجليز وهم يفرون فرادى ..

وكان المقنع يحصل على معلومات كثيرة عن العدو من مثل هؤلاء الاسرى . واشتاق محسن لان يعرف حقيقة الرجل المقنع فسأل رجاله :

— ومن هو رئيسكم المقنع هذا ؟..

وصمت الرجال ولم يحيروا جوابا ..

وعاش محسن معهم ثلاثة أيام .. وتاقت نفسه لان يرى الرجل بعينه . وكاد ينسى أحداث « رشيد » !

وفى فجر اليوم الرابع حدث هرج ومرج على شاطىء البحيرة.. ولمح من بعيد ثلة من الرجال يقبلون عليهم وهم يمتطون الخيل.. وكان بينهم الرجل المقنع ! ووقع بصر محسن عليه فأحس حياله بهيبة . كان الرجل يتشح بالسواد من أعلى هامته حتى أخمص قدميه .. ولم يلمح من خلف القناع الا احدى عينيه وكانت سوداء لامعة تتحرك فى ذكاء .. وهبط المقنع سريعا ، واندفع يغيب فى كوخه وهرع اليه الرجال الثلاثة الذين تعرف محسن بهم ..

ولما خرجوا من عنده قابلوا محسن ، وأبلغوه بخبر سىء وقع من نفسه وقعا مؤسيا .. سيعود الاعداء اليوم الى رشيد فى قوة كبيرة تبلغ ضعف قوتهم الاولى (١) وسوف يحتلون «أبا مندور» و «الحماد» (٢) .. لقد عزموا الانتقام من البلدة التى هزأت بهم منذ أربع ليـــال ...

وأطرق محسن رأسه وفكر طويلا .. ثم نهض من مكانه وولى

---

(١) ...٤ مقاتل ، ١١ مدفع من مختلف الاعيرة (التاريخ العسكرى للحملة) .

(٢) الحماد قرية على فرع النيل ، تقع جنوبا من رشيد بحوالى ١٢ كم . وموقعها يأخذ شكل عنق الزجاجة بين النيل وبحيرة ادكو



١٣

ترك محسن البلدة ، وراح يهيم على وجهه .. واتخذ سبيله نحو الجنوب .. وفى الطريق ظلت مخيلته تستعرض شريط الاحداث التى صادفته فى أيامه الاخيرة فى أسى وذهول ..

منذ أن دنست أقدام الاعداء أرض « أبى مندور » والمحن لا تكاد تفارقه .. لقد جاءوا وقد جروا النحس فى اذيالهم ! وتأجل زفافه الى «وداد» الفتاة التى أحبها من قلبه .. ثم كانت ليلة المعركة التى فقد فيها شقيقه .. ثم فقد كيانه وسمعته .. ثم فقد عطف أبيه وأمه . واخيرا فقد « وداد » من حياته !

ولم يبق له شىء فى « رشيد » البلد الذى درج فيه .. وارتبط اليه بأسمى العواطف ...

وكانت قدماه تسيران متثاقلتين فوق الرمال الناعمة .. وراح يضرب على غير هدى .. وفوق الطريق كانت عيناه تلمحان آثارا لآلاف الاقدام التى خلفها جنود الاعداء الهاربين ، وكانت تتجه كلها نحو الجنوب بعيدا عن « رشيد » .. حيث ذاقوا الكأس المرة ...

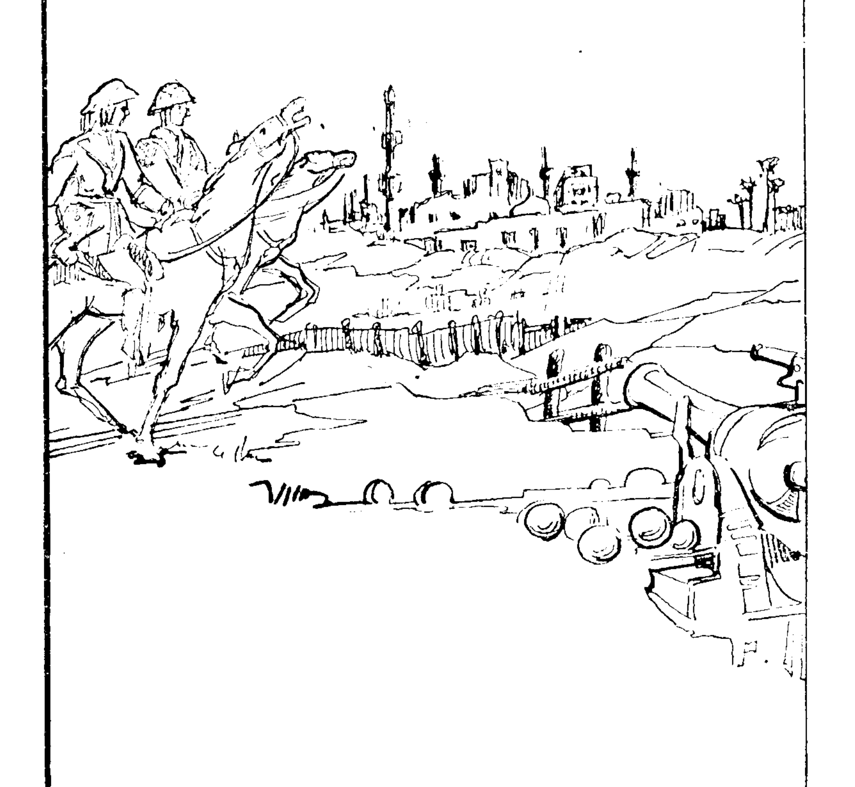
وظلت تبكى النهار والليل ..

وكانت تدوى فى اذنها عبارة واحدة قالها زوجها فى هـــدوء وحـــزن ..

ـ لقد ثكلنا ولدينا ...

حقا لقد ثكلت ولديها .. فقد مات واحد ، ورحل الآخر عن المدينـــة ...

الحصار



ظهره للبحيرة .. وتحركت قدماه عائدا نحو الشمال .. صـــوب رشـــيد . .

وبلغ « أبا مندور » عند المساء .. ولمح البلدة الحبيبة عنـــد أسفل الربوة .. ووقعت عيناه على صفحة النيل .. ثم اتجه بصره الى مئذنة مسجد زغلول .. المئذنة التى استشهد أخوه تحتها .. ولم يتمالك نفسه من البكاء ..

وظل يعدو نحو البلدة حتى بلغ المســجد .. وكان يصـــيح كالمحموم كلما رأى نفرا فى طريقه من أهل البلدة .. « لقد عاد الآثمون » .. « لقد عاد الآثمون » .

ولم يلتفت الناس اليه .. كان منظره أشبه بمن يهذى .. وعندما بلغ ردهة المسجد وقع على الارض .. وقد غشيته الحمى ..

وفى ٧ ابريل .. عاد الآثمون .. بعد مضى سبعة أيام من اليوم الذى امتلأت فيه نفوسهم بالمرارة حتى حلوقهم ..

عادوا لينتقموا فى نذالة ووحشية ..

لقد عقدوا العزم على تطويق « رشـــيد » من الجنوب حتى لا يبلغها أى مؤن أو امداد من « القاهرة » .. وخلف «ويكوب» قائد داهية جديد .. هو الجنرال « ستيوارت » .. واصـــطحب معه عددا كبيرا من المدافع الثقيلة .. وبلغ «أبا مندور» ، ونصب المـــدافع فوق الربوة العاليـــة .. وصـــوب فوهاتها الى البلدة الآمنة .. ثم دفـــع قوة كبيرة من الجنود الى « الحمـــاد » ، فى

الجنوب من « رشيد » بين النيل وبحيرة « أدكو » ليعزل رشيد تماما عن باقى القطر ..

وكان «ستيوارت» يحس العقدة النفسية التى أصابت جنوده أثر حادثة رشيد المروعة ! فاكتفى بأن يحتل المراكز البعيدة عن البلدة .. وأن يصلى دورها نارا ذات لهب تتساقط عليهم من بعيد .. حيث يرقد هو وجنوده فى مأمن حصين من فتك الاهلين.. ولم يتفتق ذهنه عن خطة أكثر من هذه نذالة وجبنا لكى يتبعها .

وفى فجر هذا اليوم العابس ، صحا الاهلون على صوت الحمم تتساقط فوق دورهم الآمنة ..

ووجه المنتقمون أول قذيفة لهم على مسجد زغلول ليفتكوا بالخاشعين لله ، ولينتقموا من المئذنة التى أذنت بحصادهم .. وهدمت القذيفة جزءا من الجامع ولكن لم تنل من المئذنة التى ظلت مشرعة حتى يومنا هذا ، تسخر من كل غاصب أثيم .. وانهار جدار من جدر المسجد قريبا من أقدام محسن .. وكان ينام نهاره وليله عليلا فى فناء المسجد فى نفس المكان الذى سقط فيه أخوه ابراهيم شهيدا ..

وتململ محسن قليلا فى مرقده ، ونام من جديد وهو لا يعى شيئا ..

وظلت مدفعية الاعداء تمطر المدينة صباحا ومساء بالقنابل .. وتهاوت الدور الآمنة ، الدار أثر الدار ..

ومرت الايام ثقيلة متباطئة .. والبلدة منعزلة عن باقى القطر

وبدا الاقتناع على وجه « وداد » .. وأكملت «جميلة» حديثها ..

ــ هذا جانب من الامر ، ومن جانب آخر لقد أحبت أسرة طاهر بك الفتاة ، من أول زوجته حتى ابنه الصغير طارق .. ولم أشأ أن أصدمهم فى عواطفهم ...

وعندئذ دمعت عينا « وداد » فقالت لجميلة :

ــ الى هذا الحد أنت نبيلة يا « جميلة » ؟.. بارك الله فيك ..

وتذكرت وداد شيئا فقالت :

ــ وأعاد الله لك والدك ...

وكانت هذه أحب دعوة الى قلب الفتاة البائسة ...

وشكرتها « جميلة » وأتمت حديثها قائلة :

ــ أما أمر محسن من أبيه فقد فكرت فيه أيضا وأنهيته قبل مجيئى اليك ! فقد زرت الشيخ جاد الله وأنا فى طريقى اليك .. ولا أستطيع أن أصف لك فرحة الرجل.. لقد قال لى وهو يبكى :

ــ الآن أثلجت فؤادى يا ابنتى .. انى أشعر أن ابراهيم ابنى يعود الينا فى شخص محسن .. وما دام قد حفظ وعده معك يا ابنتى وكتم سرك وتحمل فى سبيله ما تحمل ، فذلك يعنى أنه أصبح يدرك شيئا جديدا فى هذه الحياة ... شيئا لم يتبينه من قبل .. !

ونظر الشيخ الى زوجته وقال يحدثها :

ــ يا أم محسن. ألم أقل لك ذات يوم أن الغيرة أول الطموح!.

لقد غار محسن من أخيه ابراهيم .. ان الغيرة أول الطموح .. وبدأ يخطو لاعلى الطريق .. بدأ يخطو لاعلى الطريق ..

وجعل الرجل يرددها مرارا والدموع فى عينيه .. وزوجه تنظر اليه ولا تسمع منه شيئا ولا تعى شيئا ...

وسألت وداد :

ــ وأين محسن الآن ؟

ــ علمت انه ينام ليله ونهاره بجامع زغلول حيث استشهد أخوه ابراهيم .

وقد أنبأت أباه بذلك .. فوعدنى أن يرسل اليه من يعيده الى داره ...

وفرحت وداد ، ولم تكن قد فرحت منذ زمن بعيد ..

وأوفد الشيخ « جاد الله » رسولا الى « محسن » بمسجد زغلول .. ولكن الرسول لم يعثر على أثر لمحسن ...

فقد تصادف أن غادر محسن المسجد فى ذلك اليوم لأول مرة منذ أن أقام به .. وكان قد عزم أمره على شىء .. عزم أن يخطو لاعلى الطريق ..

والتبلد .. وتعالى الصياح .. وأسرع خدم أبيها ينقذون أهل الدار المنكوبة وعثروا على « حسن عاصم » بين الحياة والموت.. فنقلوه الى بيت وداد .. وهناك طلب منهم جرعة من لماء .. فأحضروها اليه . فلما شربها طلب أن يرى «وداد» ليسر لها أمرا..

فجاءته واجمة .. وقال لها فى حشرجة :

— وداد اغفرى لى .. لقد أذنبت فى حقك وحق محسن ..

أنا الذى رميت الورقة فى غرفتك .. لقد علمت فيما بعد من صاحب الحانة أن محسن لم يصحب الفتاة الا لامر برىء .. اغفرى لى يا وداد .. لقد كنت مدفوعا بالغيرة .. وبحبك ..!

وأسلم الروح ...

ولما سمعت « وداد » كلمات « حسن » .. اجهشت فى بكاء طويل .. وأخذ صدرها يعلو وينخفض فى قوة ..

كانت هذه أول مرة تبكى فيها منذ بدء المحن ..

وفى نفس اليوم زارتها « جميلة الرشيدى » ، وطلبت مقابلتها على انفراد .. واستهلت جميلة الحديث وقالت :

— فى هذه الايام القاسية ، ينبغى على المرء أن يخلص ضميره مما يثقله .. واستمعت « وداد » اليها وهى تنظر نحوها بعينين فى لون الدم :

— ان محسن برىء مما سمعته عنه ..

وأخذت تقص لها الامر من أول حبات الخرز ، حتى ليلةالمعركة

التى طلبت فيها من محسن أن يحتجز « درة » فى مكان خفى ..
وانهت حديثها بقولها :
ـ واليوم ماتت « درة » .. فلم يبق من يخشى أمر هذا السر..
وتذكرت «وداد» ما سمعته من الناس عن جثة قطان باشا التى وجدوها فى داخل القنصلية الانجليزية ليلة المعركة .. فلم تتشكك فى القصة ...
ولم تدر « وداد » أتفرح بهذا النبأ ، أم تزداد حزنا ...
وعادت جميلة تقول لها :
ـ شىء آخر يا وداد .. عدينى الا تبوحى بأمر هذا السر لاحد .. وسألتها وداد معاتبة :
ـ ممن تخشين بعد ؟.. ان اذاعة هذا السر اصبحت أمرا واجبا لسبب واحد . فأنت تعلمين ما جرى لمحسن مع أبيه وما حل بسمعته أمام الناس ! أليس من الواجب أن يعلم الجميع حقيقة الامر ؟
ـ لقد فكرت فى ذلك أيضا .. ولكن هناك شيئا أحسب حسابه .. وبدا الحزن على وجه « جميلة » .. واستطردت وهى تجفف دمعة فى عينيها :
ـ ان من الاسباب القوية التى جعلتنى أكتم سر « درة » هو قرابتها لطاهر بك . فلم أحب من بادىء الامر ان يقال ان حاكم البلدة زوج ابنه من جاسوسة ، وعندئذ ستفقد البلدة ثقتها بالرجل . بل كان الناس يفقدون ثقتهم بعضهم فى بعض .

تنتظر ان يبلغها النجدة والمؤن من القاهرة . ولكن امتنع عنها كل شيء .. عدا حمم النار . كانت تبلغ البلدة موفورة .. من الجحيم الذى عقده الاعداء فوق الربوة العالية ..

وبعد سبعة أيام من الضرب المتواصل بعث « ستيوارت » الى طاهر بك حاكم البلدة يطلب منه التسليم حقنا للدماء ..

فأبى الرجل .. وأبى كل الرجال من حوله ..

وعندئذ تساقطت قنبلة أطاحت الجنـــاح الغربى من داره .. وكانت « درة » ابنة قطان باشا تقيم وحدها بهذا الجناح فى حزن وكآبة بعد موت أبيها . وكانت ترفض ان تنزل فى الاقبية السفلى للدار ، حيث أقام بها أهل البيت ليحتموا من شر القنابل .. وكأنما رغبت « درة » أن تخلص من الحياة وتنتحر بيد الاعداء ، فلقيت ما تمنتـــه .. وماتت تحت انقاض الجنـــاح الذى هوى .. ماتت بنفس اليد التى فتكت بأبيهـــا من قبل بعـــد أن غررت به .. يد الآثمين ..

وأسلمت الفتاة البائسة الروح .. ولم تستطع جميلة أن تمنع نفسها من البكاء فوق جثتها ونظرت الى السماء وابتهلت الى الله أن يغفر « لدرة » ذنبها ، أما سر أبيهـــا الخائن فاحتفظت به فى قلبها الطاهر لا تطلع عليه أحدا ..

أما « طارق » الصغير فقد كره مراكبه بعد أن ماتت « درة ».. وحزن عليها حزنا عميقا . وسأل أباه :

ــ لماذا جاءت الى بيتنا يا أبى ما دامت كانت تنوى أن تموت!.

ومسح الرجل بيده على جبين الطفل وقال له :

ــ هذه يا بنى ارادة الله ...

وصمت الطفل !

أما زوجة الشيخ جاد الله فقد فقدت السمع والنطق مع القذيفة الاولى !. ولعل الاقدار شاءت أن تبلوها بذلك النقص الحسى حتى تصبح أكثر تحملا لملاقاة الاهوال .. فلم تعد تسمع شيئا من المحو.. وراح زوجها الشيخ يجلس بجانبها يتمتم فى هدوء : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » . وكان لا ينفك عن ترديدها اليوم طوله .. كان الرجل مؤمنا لم يعرف اليأس يوما طريقا الى قلبه ..

ولم يخل بيت قائم فى « رشيد » من الحزن والاسى ..

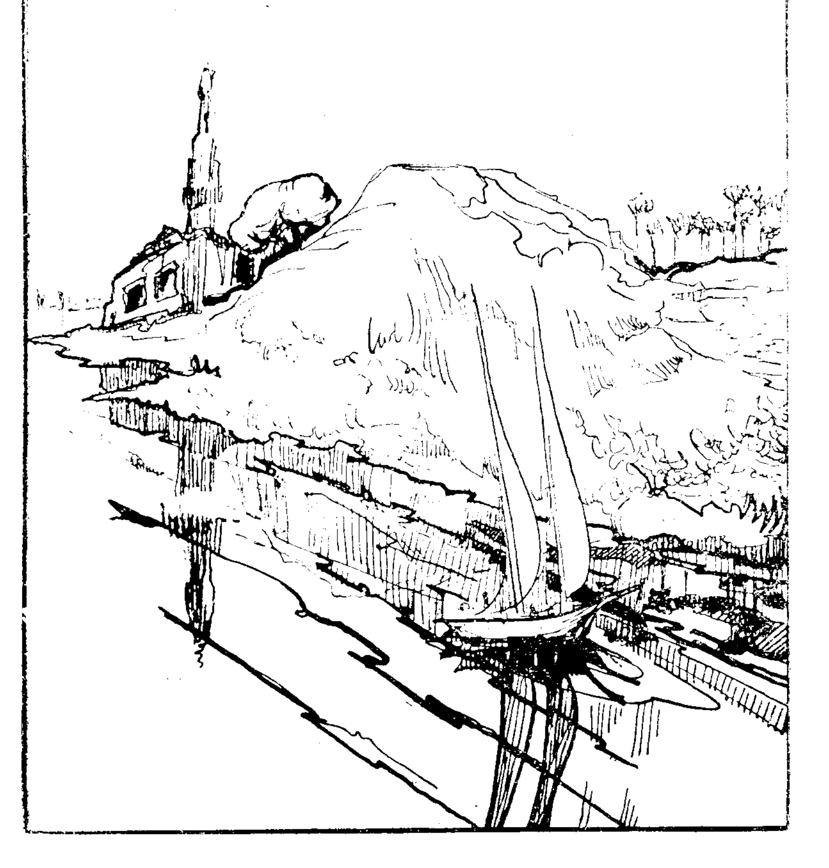
وفى كل دقيقة تمر كان ينهار بيت جديد ...

وفى ذات يوم اصابت احدى القنابل البيت المجاور لبيت « وداد عاصم » . وقامت « وداد » الى النافذة لترقب ما حدث .. كان البيت الذى تهاوى هو بيت عم « وداد » والد « حسن عاصم » .

ووقع نظر « وداد » على غرفة « حسن » وقد أصبح عاليها سافلها .. فوضعت رأسها بين كفيها ، وراحت تحدق بعينيها ساهمة ، كأنما لا ترى شيئا .. فمنذ أن فسخت خطوبتها من محسن ، وعلمت رحيله عن البلدة تولاها حزن عميق .. حتى أن صوت القنابل وانهيار الدور لم يكن يبعث فى نفسها الا الجمود



الربوة العالية



الجزر البريطانية ليبعثوا اليهم هذا الدمار ؟ هل ضايقهم الى هذا الحد أن تدافع البلدة عن نفسها !!

وسأل نفسه من جديد .. لو أن هناك دولة فى العالم أقوى من انجلترا وأشد منها رغبة فى الاستعمار وذهبت تحتل الجزر البريطانية .. فهل كان الانجليز سيرحبون بها ؟..

لماذا اذن ينكرون على الناس حقهم فى الدفاع وحبهم لوطنهم.. أى منطق هذا الذى يسود عقول المارقين ؟.. لاشك أنه منطق الطمع والوهم .. الطمع فى أن يسلب الانسان رزق أخيه الانسان .. والوهم فى أن يفرض البشر سيطرة تافهة على بشر مثلهم ...

وكانت مثل هذه الخواطر تروح وتجىء فى رأس محسن ... وتعلق بصره عند الغروب بوميض المدافع الآثمة .. وظل يحدق اليها طويلا .. ثم انتفض واقفا وقد أسر فى نفسه أمرا . وترك المسجد ومشى حتى بلغ شاطىء النيل وعرج على الحانة.. فوجدها مغلقة .. فذهب الى الباب الخلفى ليقابل صاحبها «ينى» العجوز.. كان هذا هو الصديق الوحيد لذى يمكن ان يرحب بمحسن فى هذا اليوم ..

ولما رآه الرجل قال ؛ وقد بدا على وجهه الحسرة :

ــ متأسف « سى محسن » .. اننى امتنعت عن بيع الخمر منذ اثنى عشر يوما .. لقد أغلقت الحانة لاشارك البلد حزنها ..

ــ هدىء خاطرك يا صديقى .. فلم أجىء لاطلب خمرا .. وانما جئت لامر آخر .

ــ أمرك « سى محسن » .

ــ انى أرغب فى أن تدبر لى قدرا كبيرا من الحبال .

ونظر الرجل فى دهشة الى « محسن » وقال متعجبا ؟

ــ حبـــال ؟؟

ــ نعم حبال .. أرجوك انى فى أشد الحاجة اليها .. وسأخبرك فيما بعد عن سبب احتياجى اليها .. دبر لى أمرها من أى طريق . فأنا لا أعرف اليوم من ألجأ اليه غيرك ..

ــ لدى منها الكثير فى المخزن الخلفى ، وكانت تأتينى مــع صناديق الخمر .. انتظر لحظة ..

وعاد الرجل وهو يحمل أمتارا من الحبال ..

فأخذها الاخير وشكره وهم بالانصراف ..

وعندئذ نادى عليه العجوز وقال له :

ــ أنت رجل طيب « سى محسن » . تعال اذن واحتس معنا كأسا من النبيذ ولكن فى غير مقابل ..

وفتح الغرفة الجانبية .. واندهش « محســـن » عندما لمح بداخلها اثنين من زملائه الماجنين الذين أمضى معهم الليلة التى تأجل فيها زفافه بمناسبة مقدم الاعداء النحس ! وكانت أمامهما زجاجة مغلقة من النبيذ لم تفتح بعد ..

وقال العجوز الاجنبى معتذرا :

لقد خشوا أن ينتقم الشعب المصرى منهم وأن يثور ضدهم الرأى العام ، وكان قد بلغ هذا الرأى العام أوجه منذ عامين . يوم أن عزل الوالى التركى وعين « محمد على » خليفة له .. وكانت كل ساعة تمر تمضى ثقيلة كدهر على أهالى رشيد .. ولكنها كانت تمر أثقل على جنود الاعداء .. وقد بلغ « فريزر » أن « محمد على » رجع الى نفسه وعدل عن الهرب الى سورية . وأن أهل القاهرة قد قويت عزائمهم عندما وصلتهم رءوس القتلى وأسرى الانجليز من رشيد ...

وكتب « فريزر » لاستيوارت يؤنبه على تأخير احتلال « رشيد » . اذ لو تمكن « استيوارت » من احتلالها لوضع المصريين أمام الامر الواقع ولنجحت الحملة فى أغراضها . ولكن « استيوارت » لم يحتل « رشيد » ولم يكن ليجرؤ .. فبعث يبرر تقاعسه الى «فريزر » وحرر له الخطاب التالى (١) :

« ان ما انبأتمونى به من قرب حضور المماليك جعلنى
« اتريث فى الهجوم على رشيد .
« لقد ألحقنا بالمدينة أضرارا كبيرة ، وبلغ ما أطلقناه من
« المدافع البعيدة المدى وحدها ٣٠٠ قنبلة .. على أنه
« يتبين لنا أن الاعداء لا يكترثون بالصائب التى تنزل

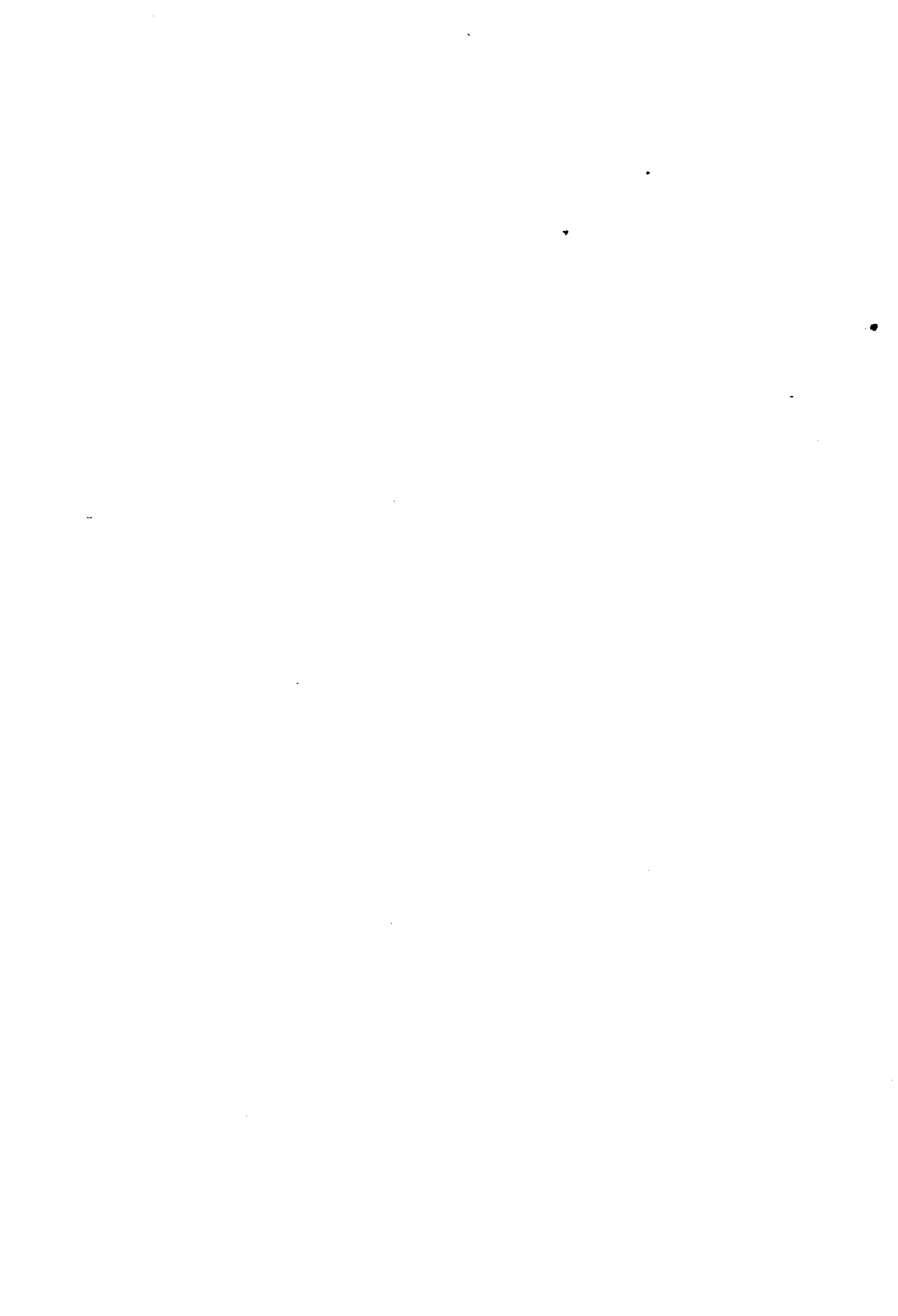
(١) هذا الخطاب منقول نصا من التاريخ العسكرى للحملة او وثائق الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ للمسيو دوان وثيقة رقم ٤٦)

« بهم ، ان قواتهم لا تزيد كما علمنا عن بضع مئات من
« الجنود ، وألف من الاهالى المسلحين ، ولكن نظـرا
« لسـعة خطوط دفاعهم وطبيعة مواقعهـم لم أر من
« «الحكمة» أن اتعجل اقتحام المدينة ... أن نجاحنـا
« معلق على نجدة المماليك .. وفى انتظار تلك النجـدة
« يتبين لنا أهمية موقعنا فى (الحماد) حيث نتوقع أن
« يهاجمنا الاعداء فيها ... »

وهكذا راح « استيوارت » يخلق المعاذير والحجج الواهية. وكان يتحجج بخطوط المصريين وهم قليلو العدد .. فى حين أنه كان يحتل أفضل المواقع المتحكمة فى ربوة « أبى مندور » ... وكان يلح فى طلب النجدة من المماليك، وهو يملك آلاف المقاتلين، والعدد الكبير من المدافع ..

وكان الرجل « حكيما » حقا (كما ذكـر فى خطابه) فى أن يتريث فى الهجوم بعد العقدة النفسية التى أصابت جنود الانجليز فى ٣١ مارس .. وكذلك شاء القدر أن يتريث فى هجومه للأبد .. واكتفى « استيوارت » باطلاق المدافع على البلدة .. فقد كانت هذه المدافع هى الصمام الذى ينفث منه غيظه ..

وأخذ صوت المدافع يقوى ويشتد كل يوم حتى أرق محسن وجعله يفيق من ذهوله وعلته .. وظل محسن يسائل نفسه الى متى سيظل هؤلاء الاوغاد يحاصرون البلدة ويلقون على رأسها بالحمم ؟.. ما الذنب الذى اقترفه أهل « رشيد » حيال سـكان



١٤

ظل الاعداء يحاصرون المدينة اثنى عشر يوما .. أوقعوا خلالها خسائر كثيرة بالارواح والممتلكات .. الا أن « رشيد » لم تحن رأسها ولم تستسلم ...

وقررت الثبات فى عناد وكبرياء مهما كلفها ذلك من أفدح الخطوب .. وبدا اليأس ينفذ الى قلب « ستيوارت » القائد الجديد .. ورح « فريزر » يحثه على اقتحام « رشيد » واحتلالها توا .. ولكن ظل « ستيوارت » يؤجل هذا الهجوم من يوم الى يوم حتى مرت هذه الايام الاثنا عشر .. وقصر كل همه خلالها على ضرب البلد الامين بنيران المدفعية الثقيلة .. دون أن يدفع اليها برجاله فى اشتباك مباشر مع رجال حاميتها البواسل . وكان يمنى نفسه أن ينجح «فريزر» فى الاتصال بالمماليك والعثور على خليفة للالفى .. ولكن خاب كل مسعى لهم . فلسوء حظهم قرر المماليك رغم كراهيتهم « لمحمد على » الا يتعاونوا مع الانجليز[1]

---

(١) اتصل الانجليز بالمماليك القبليين لكى يعاونوهم فى غزو القطر .. كما اتصلوا بعثمان باشا حسن فى دمنهور ورفض الاخير التعاون معهم (الجبرتى) .

ـ وحياتك أنت « سى محسن » هـذه أول ليـلة ، نشرب فيها خمرا ..

لقد دعوتهما لكى يتناولا كأسا واحدة . ولكن فى غير مقابل .. لقد أقسمت الا أبيعها الا بعد أن يرحل المعتدون عن أرض البلدة..

وفرح الرجلان بمقدمه ورحبا به.. فقد افتقداه منذ أمد بعيد..

وقال احدهما وكان مرحا ويدعى « أبو حسين » :

ـ اننا لم نمس الزجاجة بعد .. حظك دائما امام قدميـك .. فمنذ الليلة المعهودة ونحن لم نجتمع لنشرب شيئا .. وها نحن نجتمع اليوم ثانية على غير ميعاد . . حقا ، رب صدفة خير من ألف ميعاد كما يقولون ...

وعندئذ بدرت حركة غريبة من محسن.. فلقد هجم على زجاجة الخمر وأطاح بها بعيدا .. وأمر الرجلين أن يتبعاه .. فنهضا وخرجا معه كالمأخوذين واستعجب الرجل العجوز .. وقال صائحا وقد ظن شيئا . :

لماذا « ياسى محسن » أقسم بشرفى انه أجود أنواع النبيـذ يا « سى محسن » !.. وتركه الرجال الثلاثة وانصرفوا ..

وحمل كل واحد منهم لفائف من الحبال ، وساروا بمحاذاة النيل .. واتجهوا جميعا نحو الجنوب وتكلم «أبو حسين» فقال :

ـ الى أين يا محسن ؟..

ـ لماذا تسأل ؟..

ـ أبدا ، نحن معك حتى الى الجحيم . فمنذ أمد طويل ونحن نتوق

للقائك . ولكن أليس من حقنا أن نسأل ؟.

فأجاب محسن :

ـ مادمت تحب أن تعرف . فالأمر كذلك كما قلت . نحن فى طريقنا الى الجحيم !

وضحك الرجال طويلا .. ولم يدر بخلد واحد منهم أنهم حقا فى طريقهم الى الجحيم .. عند الربوة العالية ..

وظل محسن ساهما طول الطريق .. فى الوقت الذى لم يكف فيه زميلاه عن الحديث ، وقال أبو حسين :

ـ الى متى سيستمر هذا الحال .؟ لقد مات من البلدة عدد كثير .. أين نجدة القاهرة ؟؟

فرد عليه زميله الآخر ويدعى « يوسف » :

ـ الظاهر أن القاهرة لن تسأل عنا . لقد علمت أن الشيخ حسن كريت أرسل منذ يومين خطابا الى الشيخ «عمر مكرم» بالقاهرة ووقع عليه جميع أشراف البلدة .. وكان خطابا شديد اللهجة [1] .. لعل هذا الخطاب يجعلهم يذكرون أن هناك بلدا اسمه (رشيد) محاصرا فى شمال القطر ...

كان الليل هادئا معتما .. لا يقطع هدوءه وظلمته بين الحين والحين ، الا طلقة مدوية من مدافع الاعداء .. يبرق وميضها عاليا فى الافق ...

---

(١) ارسل الشيخ حسن كريت هذا الخطاب فى ٢ صفر يؤنب فيه حكام القاهرة على تأخرهم فى ارسال المؤن والنجدة (الجبرتى)

وسار الرجال الثلاثة نحو الساعة ، حتى أوشكوا أن يبلغوا سفح الربوة التى تربض فوقها مدافع الآثمين .. وكلما اقتربوا منها كلما بلغهم صوت المدافع قويا مرعدا .. ورائحة البارود تتسرب الى أنوفهم ، حتى أصبحوا على خطوات قليلة من الربوة فسعوا نحوها زاحفين ..

ولاح أمامهم ضريح الشيخ « أبى مندور » على لسان صغير من البر يمتد بين الماء والربوة .. فاختبأ الرجال عنده وبدأ أبو حسين يسأل محسن :

ـ انك لم تكن تمزح اذن حين قلت اننا ذاهبون الى الجحيم.. فهو الآن فوق رؤوسنا مباشرة ...

قالها الرجل وهو يتحسس رأسه ويشخص ببصره الى أعلى الربوة ...

وأدرك أبو حسين انهم مقبلون على مهمة خطيرة .. فوضع يديه فوق الضريح وأخذ يقول هامسا :

ـ كرامتك يا أبا مندور ...

وعندئذ حضرته أغنية شائعة عن كرامة الشيخ أبى مندور فجعل يهمس بكلماتها :

« تصد البحر بدماغك والتل بين قدميك ...
« لا الريح تغطى مقامك ولا النيل بيطغى عليك

كانت تشيع فى البلدة أسطورة (١) مؤداها أن هذا الولى له كرامة كبيرة عند الله .. فرغم أن هذا المكان معرض لفيضان النيـــل ، ولانهيار الرمال فوقه من الربوة .. فان الماء ينحسر دائمـــا عن الضريح ولا يصل اليه . أما الرياح فانها تغطى المكان كله بالرمال عدا الضريح ...

وكان هذا ما تقصده الاغنية بقولها « لا الريح تغطى مقامك ، ولا النيل بيطغى عليك » ..

وهمس يوسف ثالثهما قائلا :

ـ نعم . كرامتك يا أبا مندور ..

ونظر محسن اليهما وقال :

ـ سنبدأ بعد قليل ...

---

(١) الاغنية والاسطورة منقولتان عن اهالى رشيد (بتصرف قليل) .

سرّ المقنّع





١٥

شرع محمد يشرح للرجلين الخطة التى عزم أمره على تنفيذها الليلة .. فاستهل حديثه قائلا :

ـ لو نظرتما الى أعلى لرأيتما أضخم مدافع الاعداء جاثما بجوار حافة الربوة .. انه المدفع الذى أصاب مسجدزغلول وهدم كثيرا من الدور الآمنة .. ولقد عزمت أمرى على اسكاته للأبد ..

ـ وحدك ؟

ـ كنت وحدى حتى التقيت بكما ..

وأخذ يشرح لهم تفصيل الخطة .. واستمع اليه الرجلان فى جد لأول مرة فى حياتهما . وكان محسن يتكلم كقائد.أو كبطل ملهم !

وسأله أبو حسين مداعبا :

ـ أين وضع قائدنا هذه الخطة المحكمة !!

فأجاب محسن مقتضبا :

ـ فى المسجد حيث قتل ابراهيم أخى ...

ومن بعد هذه الاجابة التزم الجميع الجد الليلة كلها ..

واستطرد محسن قائلا :

ـ لقد ظللت أرقب هذا المدفع النهار وأطراف الليل .. انى حفظت عن ظهر قلب متى يصمت ومتى ينطلق .. ولقد كانت آخر قذيفة له اليوم ما سمعناها ونحن بالطريق ، وسوف يلزم الصمت من الآن حتى مطلع الفجر .. وبعد ساعات قليلة سوف يذهب رجاله للنوم .. ولن يبقى منهم الا حارس أو حارسان وعندئذ تبدأ مهمتنا .. أما الآن فعلينا أن نعد هذا الحبل للعمل ..

ثم أمسكوا بالحبل بين أيديهم ، وصاروا يصنعون منه جزءا واحدا متماسكا يزيد طوله عن ارتفاع الربوة العالية .. وفى خلال ذلك العمل راح كل منهم يستغرق فى خيالات بعيدة .. لقد تذكروا أيام صباهم الاولى .. كانت هذه الربوة مسرحا للهوهم المفضل.. يصعدونها فى لمح البصر ثم يقذفون بأجسامهم الى صفحة النيل العميق .. ويقدمون على هذا الامر عشرات المرات فى النهار دون أن يملوا .. واليوم يعودون للربوة لشيء آخر غير اللهو .. وحانت ساعة العمل .. وأخرج محسن من جيبه مديتين حادتين كان قد أخذهما من الرجال الاعراب الذين قابلهم عند البحيرة ، وناول احداهما لابى حسين .. وشرعا يتسللان لأعلى الربوة فى خفة وصمت ، بينما بقى يوسف فى أسفلها عند حافة الماء .. وفى دقائق بلغ الرجلان القمة .. وهناك رقدا يرقبان عن كثب .. ولمحت عيونهما حارسين متراخيين للاعداء .. لم يظن الانجليز ان هناك من سيأتيهم ليدهمهم فى عقر مربضهم ! كان الحارسان يتحركان فى اتجاه مضاد فى خطوات ثقيلة منتظمة ...

واتفق محسن وأبو حسين أن يباغتاهما الواحد تلو الآخر ..

والتقى الحارسان فى مكان متوسط ، ثم بدأ يفترقان وقد أعطى كل منهما ظهره للآخر . وتحرك واحد منهما قادما نحو حافة الربوة حيث يكمن له الفدائيان .. وفى لمح البصر انشقت الارض عنهما ، وهجما عليه وأجهزا عليه بالمدية .. وقد حبس محسن صوت الرجل فى فمه بيده .. وقبل أن ينتبه الحارس الآخر الى حقيقة ما حدث هرعا نحوه وصرعاه جثة هامدة على الارض .. أما باقى رجال المدفع فكانوا أربعة يستغرقون فى نوم عميق على مسافة ليست بعيدة .. ولم يشأ محسن أن يتورط معهم ، واكتفى بأن استل بندقية أحد الحارسين واعطاها لابى حسين فى يده وقال له :

ــ أرقبهم واحم ظهرى ..

واتجه « محسن » الى المدفع وعقد الحبل حول فوهته عقدة محكمة .. ثم القى بطرفه الآخر الى أسفل الربوة حيث كان يقف « يوسف » .. وراح يدفع الاحجار وقطع الحديد التى كانت تثبته بالارض بعيدا عنه .. ومرت الدقائق كأنها دهر ..

ولما انتهى محسن من مهمته .. اتجه الى « أبى حسين » وأمسك منه البندقية وقال له :

ــ اهبط أنت أولا . وانتظرنى عند يوسف ..

وغاب أبو حسين عند حافة الربوة .. وعندما جاء دور محسن فى الهبوط لمح شيئا عجبا كاد يجعله يرتجف .. فعند الجانب الآخر

للربوة رأت عيناه أربع كرات من النار تتدحرج مسرعة فوق الارض .. وصرخ حراس الاعداء الذين فى الجانب البعيد وفى أقل من لمح البصر استقرت هذه الكرات وسط صناديق البارود فانفجرت مدوية .. ودفع انفجارها بمحسن فى الهواء فلم يحس بنفسه الا وقد سقط من فوق الربوة على صفحة النيل .. واشتعلت الربوة .. وصارت جحيما .. وعندما غاص «محسن» فى الماء تنبه الى نفسه وأخذ يسبح نحو الشاطىء . وهناك وجد زميليه ينتظرانه فى وجوم .. وكان يوسف ما زال ممسكا بطرف الحبل فى يده ...

سأله ابو حسين ماذا حدث ؟؟

فحكى له محسن مندهشا أمر كرات النار .. وكيف نسفت مخازن البارود للاعداء ..

فقال أبو حسين : ـ

ـ عجبا . يظهر أن هناك من يزور الاعداء مثلنا فى الجانب الغربى للربوة .. وتمتم الجميع متسائلين . من هو يا ترى ؟؟

واستجمع محسن انتباهه وقال :

ـ على أية حال علينا أن نتم مهمتنا .. فقد كان مكان الانفجار بعيدا عن المدفع ، ولا أظنه قد أصابه بشىء ..

وأمسك الرجال الثلاثة بطرف الحبل المدلى وجعلوا يجذبونه فى عنف !..

كان المدفع ثقيلا .. وأبى أن يتزحزح فى بادىء الامر .. ولكن

مع عزيمة الرجال واصرارهم بدأ الحبل ينجذب معهم قليلا .. قليلا .. حتى بدأ شبح المدفع يبرز من أعلى الربوة .. وكان أبو حسين أول من رآه فهتف هامسا :

ـ لقد وصل صاحبنا ..

واستمروا فى الجذب .. واستمر المدفع فى البروز .. حتى شعروا أنه أصبح على وشك السقوط . فقال محسن :

ـ لنكن على أتم استعداد لان نجرى صوب الشمال أول ما يميل ثقل المدفع للامام وبذلك لا يسقط فوقنا ..

ولم ينته محسن من عبارته حتى حدث أمر غير متوقع .. فقد انطلق صوت الرصاص مدويا من أعلى الربوة فى اتجاه الرجال ..

ولكن لم تثنهم هذه المفاجأة عن اصرارهم .

وفى لمح البصر هوى المدفع من أعلى الربوة الى صفحة النهر الخالد ..

وسرعان ما استقر فى القاع العميق .. واستقرت معه جثة رجل من رجال الاعداء كان قد تشبث بالمدفع فى اللحظة الاخيرة يحاول أن يمنع سقوطه !

واندفع الرجال الثلاثة على الشريط الضيق عائدين ادراجهم الى رشيد ثم قفزوا فى الماء ليتموا رحلتهم مختفين تحت صفحته ..

وابتلع الماء الرجال الثلاثة وطلقات الرصاص تتبعهم طائشة من أعلى الربوة . كان جنود الاعداء هم الذين يصوبون هذه الطلقات .. فقد حدث أن صحوا على صوت الانفجار وقد ملكهم

الذعر .. ثم لمح واحد منهم المدفع الثقيل يتأرجح عند حافة الهاوية .. فجرى نحوه وتشبث به .. ولكن المدفع هوى وحمله معه الى الاعماق .. وراح باقى زملائه يصوبون نيرانهم الى سفح الربوة ونحو صفحة الماء ..

واستمر الرجال الثلاثة يسبحون فى الماء فى خفة ومهارة .. فقد خبروا السباحة فى هذا الجزء من النيل فى أيام طفولتهم .. ولكن أمرا مؤسفا احاق بمحسن ! فقد أحس فجأة بألم ممض فى كتفه أوقف حركة ذراعه اليسرى .. وسرعان ما أحس بقواه تخور .. لقد اصابته رصاصة طائشة فى كتفه .. ولم يقو حتى على الصياح .. بينما استمر زميلاه فى السباحة .. ولم يدر بخلدهما أنه قد عجز عن متابعة الرحلة من ورائهما ..

وأغمض محسن عينيه .. وفقد السيطرة على جسمه وشعر بأنه يغوص الى الاعماق ..

ولم يدر محسن كم لبث على هذه الحال .. ولكن لما فتح عينيه لحظ أن ضوء الفجر الباهت بدأ يبدد ظلمة الليل .. ولما عاد الى صوابه وجد نفسه ممدا فى كوخ صغير وتحت رأسه وسادة من القش .. وعندما أدار رأسه ليتفحص ما حوله استقرت عيناه على شبح رجل متشح بالسواد من أعلى هامته حتى أخمص قدميه !! وكادت تفلت من بين شفتيه صرخة مدوية ، ولكنها انحبست فى حلقه .. فقد رأى « الرجل القنع » وهو يجثو فوق صدره يضمد بيده الجرح الذى فى كتفه .. وارتاح « محسن » .. وعندئذ مال

نحوه الرجل المقنع يحدثه فى صوت هادىء آمن .
ــ لا تخف .. فأنا صديق ..
واطمأن محسن .. وتذكر انه رأى الرجل رأى العين منذ اسبوعين عند حافة البحيرة فحرك شفتيه متحدثا :
ــ أين نحن ؟
ــ نحن فى مأمن من جنود العدو .. اننا على الشاطىء الشرقى للنهر ..
ــ ولكن كيف ؟؟
ــ أصمت وسأحدثك بكل شىء .. فقد كنا نعبر النيل فى طريقنا الى هذا الشاطىء عندما لمحك أحد رجالى تغوص فى الماء .. فقفز الى النهر وحملك الى القارب ..
وصمت « محسن » واستطرد المقنع حديثه
ــ لقد عرفك رجالى . وقالوا لى أنهم التقوا بك يوما . أليس كذلك ؟
ــ بلى .
ونظر الرجل المقنع باحدى عينيه نحو محسن طويلا وقال له :
ــ انى اعجب بشجاعتك .. لقد شهدنا كل المغامرة التى قمتم بها الليلة أنت وزميلاك .. لقد كنت اختفى قريبا منكم أرقب رجالى وهم ينسفون مخازن الذخيرة ورأينا المدفع وهو يسقط .. ولكن حدثنى عن أمرك .. من أنت يا فتى « رشيد » .
ــ انى أدعى محسن جاد الله .

وصمت المقنع ثم تحــدث بصوت متهدج لحظ فيــه محسن الاضطراب ..

ــ انت شقيق ابراهيم جاد الله ؟

ــ نعم .

ــ لا أعجب اذن لبطولتك .. فقد كان أخوك ابراهيم بطلا مثلك .

واهتزت خلجات محسن لهذه العبارة ودمعت عيناه ..

يا الهى .. انه بطــل .. بطل .. ومن الذى يصــفه بالبطولة ، الرجل المقنع ذو الشجاعة الخارقة ..

وشعر محسن بالفرحة تغمر كيانه .. كان يتمنى لو شهده أهل « رشيد » كلهم ، وسمعوا هذه الشهادة تنطق بها شفاه المقنع ..

وأوشك الرجل على الانتهاء من تضميد جراح « محسن » وعندئذ قال « المقنع » :

ــ سوف ينقلك احد رجالى الى الشاطىء الآخر بعد قليــل لكى تستريح فى بلدتك .. أما انا فسأنصرف الآن .. وسلاما الى أهل بلدتكم جميعا ..

كان المقنع يتحدث فى صوت رقيق وعجب « محسن » من أمر الرجل .. انه يعرفه ويعرف أخاه ابراهيم .. فمن يكون هذا الانسان الغريب السر ؟.. وهم أن يسأله عن حقيقة شخصه .. ولكن حدثت عندئذ أغرب مفاجأة لم يتوقعها محسن .

فعندما انتهى المقنع من تضميد جراحه هم بالنهوض وكان القناع بدأ ينحسر وحده رويدا رويدا عن جبينه .. ولم ينتبه الرجل الى

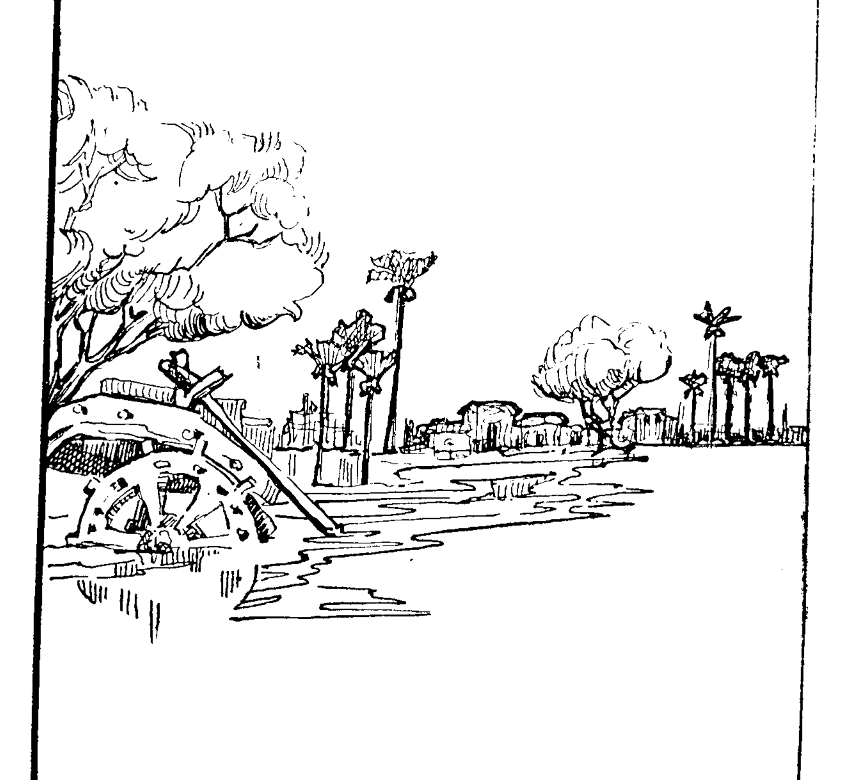
أمره وقد انشغل عنه بتضميد الجرح .. فلما وقف ناهضا سقط القناع فجأة عن وجهه .. وعلى ضوء الفجر الذى بدأ يغمر المكان رأى محسن وجه الرجل ، فبدرت منه صرخة قوية وأسرع يغطى وجهه بيديه حتى يغض عينيه عن المنظر الرهيب الذى شهده .

فقد كان المقنع « مشوه » الوجه تشويها أثيما مرعبا .. فلم تكن له الا عين واحدة واسعة .. وقد جدع أنفه .. وبدا نصف وجهه محترقا أسود . وقد انتزعت منه العين الاخرى انتزاعا .

وانتفض المقنع وبدا عليه الفزع والاضطراب .. فأعاد القناع الى رأسه سريعا ، ثم أدار ظهره ، وأطلق ساقيه للريح ، حتى غاب بعيدا وراء التلال ..



قرية الحمّاد



١٦

حقا أن الخطوب لا تأتى فرادى ..

ففى الليلة التى جلس فيها « ستيوارت » ينـدب الكارثة التى أحاقت بمدفعيته فى « أبى مندور » أقبل عليه رسول من قبـل الكولونيل « ماكلود » قائد قوة الحماد ينبئه بما هو أمر وأفدح .

فقد دفعت « القاهرة » أخيرا بقوات ضخمة [1] من المتطوعين والجنود والفرسان المصريين على كل من شاطىء النيـل الشرقى والغربى لمهاجمة الانجليز فى « الحماد » وفك حصار رشـيد .. وشعر « ستيوارت » بالمحن توشك أن تتجمع كلها عند رأسه ، وكان شعور الرجل صادقا ..

فسرعان ما توالت عليه أنباء السوء من بعد ذلك .. لقد سبق أن أرسل الكولونيل « ماكلود » الى « الحماد » ليحتل « عنق الزجاجة » بين النيل وبحيرة « ادكو » ليحكم الحصار على « رشيد » ويوئسها من النصر ..

(١) بلغت هذه القوة ٤٠٠٠ مقاتل من المشاة ، ١٥٠٠ من الفرسان (التاريخ العسكرى للحملة) .

ولكن النحس الذى لازم الحملة المعتدية منذ اليوم الاول الذى وطئت فيه أرض الاسكندرية ، أبى أن يفارقها فى أى مكان ..

فقد استطاعت الفرسان المصرية أن تسلل خلف المواقع الانجليزية وتقطع خط مواصلاتها بين « الحماد » ورشيد .. وبذلك حوصرت القوات التى جاءت لتحاصر ، ووقع الصائد فى شباك الصيد ..

ويئس « كلود » من الموقف فرأى أن يفر وينسحب الى قواعده.. ولكن هيهات أن يتم له ذلك ..

كان جنـــود المصريين ومتطوعوهم على قـــدر كبير من الروح المعنوية .. لقد امتلأ قلبهم عقيدة وايمانا بطرد المستعمر الغاصب ، وتحرير وطنهم من كل سيطرة أجنبية .. وبدأت المعركة ، وكانت أشبه باستعراض أكثر منها بالقتال ..

لقد اندفع الجنـــود والمتطوعون وهم يكبرون ويصـــيحون ، والطبول تدق من خلفهم وألقوا بأنفسهم فى النيران ولم يبالوا بها .. وهجموا على المعتـــدين واختلطوا بهم وأدهشـــوهم بالتكبير والصـــياح حتى أبطـــلوا رميهم ونيرانهم ! ولم تمض لحظات حتى قضوا على الجناح الايمن للعدو ، ولقى « ماكلود » حتفه بالمعركة .. أما الجناح الايسر فقد ألقى سلاحه وطلب التسليم .. وهكذا انتهت معركة الحماد وقد أبيدت القوات الانجليزية على بكرة أبيها .. بين نصف قتل ، ونصف وقع أسيرا . (١)

---

(١) بلغت قوات الحماد حوالى ٨٠٠ جندى ، وبلغ القتلى منهم ٤١٦ ، والاسرى ٤٠٠ (التاريخ العسكرى للحملة) .

وبلغ خبر الكارثة الى الجنرال « ستيوارت » ، وكان لا يأنس فى نفسه القدرة على اقتحام البلدة الأبية « رشيد » ، وبخاصة بعد أن فقد مدافعه وذخيرته فى غارة الامس التى شنها عليه الابطال المجهولون .. فأمر جنوده بالانسحاب .. ولما شهدت « رشيد » فرار الاعداء انطلقت مع المتطوعين يطاردون الجيش الغادر .. ولم يسلم الهاربون من غارات « الرجل المقنع » فخطف رجاله منهم عددا كبيرا من الاسرى ..

وعاد المهزومون يجرون أذيال الخيبة ، على نفس الطريق الذى عادت عليه من قبل جنود « ويكوب » مقهورين ..

ولما بلغت قوات الانجليز « أبا قير » انسحبت منها بحرا الى قاعدتها فى الاسكندرية .. وتوارت خجلة خلف أسوارها ، ومنذ ذلك العهد لم يجرؤ جندى انجليزى واحد أن يخطو قدما واحدة خارج هذه الاسوار ..

وبعث « فريزر » يطلب « ستيوارت » لمقابلته .. فوقف الاخير أمامه مطرق الرأس كاسف البال .. وظل واجما .. اذ كانت المحنة أقوى من أن ينطق بها لسان رجل ..

وامتلأت نفس « فريزر » بالحسرة .. لقد أمضى أربعين يوما بالاسكندرية منذ بدء الحملة توالت عليه خلالها اللطمات قوية مذهلة .. وجلس يستعجب كيف تستطيع فئة قليلة أن تهزم فئة كبيرة ..

وراح « ستيوارت » يحكى له ما حدث لقوة الحماد .. وكيف

أنه لم يعد منها جندى واحـد ، ولما جاء ذكر قوة رشيد أخـذ يتحدث من جديد عن « حكمته » التى أنقذت الجند الكثيرمنها.. .. وكان « ستيوارت » لا ينفك يتحدث عن « الحكمة » كلما عجز عن قهر المصريين .. حتى عندما سأله « فريزر » عن المدافع التى فقدها ، كذب وقال انه هو الذى دمرها بحكمته حتى لا تقع فى أيدى العدو .. كانت تقتضى « الحكمة » أن ينكر الحقيقـة عن « فريزر » أيضا ..

وفى الوقت الذى كان يعانى فيه « فريزر » ألم اللطمة الثانيـة كانت « رشيد » تحتفل بنصرها الثانى ..

لقد خمد صوت المدافع الآثمة الى الابد .. ورحل الغاصبون الى غير رجعة .. وراح الاهلون يحملون أنقاض الدور المنهدمة ليعيدوا بناءها من جديد ..

لقد أراد العدو لهم الهزيمة .. وأراد الله لهم النصر .. فمن ذا الذى يخذلهم من بعده !..

وأخذت الحياة فى رشيد تعود سيرتها الاولى ..

وأخذت المدينة تتندر فى كل مكان ببطولة « محسن جاد الله ».. وزميليه .. فقد عاد اليها أبو حسين ويوسف يحكيان مغامرة ليلة « أبى مندور » . وتهامس الناس بالشك فى بادىء الامر . حتى عثر رجال الحامية على حبل طويل عند سفح الربوة وقد غاص طرفه فى الماء .. فلما خلع واحد منهم ثيابه ونزل الى الماء تحسس المدفع بيديه جاثما فوق القاع .. عند نهاية الحبل ..

لقد أصبح الناس يتحدثون اذن عن شجاعة «محسن جاد الله» .. شجاعته أمام مدافع الاعداء الثقيلة .. وسمعت البلدة كلها بهذه القصة .. عدا امرأة واحدة .. هى أمه .. فلم تكن تستطيع أن تسمع شيئا . ولو أنها سمعت بها لتعجبت فى نفسها ، وقد تذكرت حديث محسن ذات يوم غير بعيد عن توجسه من هذه المدافع الثقيلة.. وتلفتت رشيد كلها تبحث عن محسن جاد الله ونقبت عنه فى كل مكان فلم تهتد اليه .. وعاد « أبو حسين » و «يوسف» ليبحثا عنه فى « أبى مندور » ولكن ذهبت كل محاولة لهما مع لفحات الرياح ..

واستولى الحزن قاسيا لاول مرة على الشيخ المؤمن «جاد الله» .

وكان يجلس صامتا واجما فى الدار طول يومه .. وكلما هم أن يحدث زوجه ليطرد عن نفسه خواطر السوء ، تذكر محنتها هى الاخرى ، فيرتد الى نفسه حزينا محسورا .. فلا يجد ملاذا يولى وجهه اليه الا السماء .. يرى الامل عند نورها ..

ويبدو أن السماء لم تخيب رجاء الشيخ طويلا !..

فقد عثر العجوز « ينى » على محسن فى صباح اليوم التالى لرحيل الاعداء .. فعندما عاد الرجل ليفتح حانته من جديد مع الصباح وقعت عيناه على قارب تعبث به المياه قريبا من الشاطىء .. وكان بداخله رجل نائم .. وكاد لا يهتم بالقارب ويعطيه ظهره .. لولا أنه لحظ بوجه الرجل النائم شبها قريبا لمحسن جاد الله .. فعاد واقترب من الماء ، وتفرس فيه طويلا .. ودهش الرجل ؛ لقد

كان هو محسن بعينه .. وكان غائبا عن الوعى والضمادات تعلو كتفه وذراعه ..

واستعان العجوز بواحد من المارة وجذبا القارب . وحمل محسن الى بيته ولما أفاق محسن ضحك العجوز فى وجهه وقال :

ــ ما كنت أحسب أن حبلا من حبالى سيصطاد ذات يوم مدفعا للانجليز !.. وطار الخبر الى طاهر بك الحاكم . فذهب بنفسه ليراه فى بيت العجوز « ينى » ! وعند عودته اصطحب محسن معه الى بيته .. وكان يعلم أن محسن لن يفكر حاليا فى العودة الى بيت أبيه بعدما جرى بينهما ليلة المعركة الاولى فى ٣١ مارس ..

واستولى النوم من جديد على محسن فى بيت الحاكم .. ثم استيقظ بعد ساعة ليرى أمامه جمعا يضم أباه ، و « عاصم بك » والد « وداد » .

كانت وجوه القوم جميعا تبتسم نحوه .. وقام أبوه فاحتضنه فى رفق ، وأخذ يقبله فى جبينه .. وانهمرت الدموع غزيرة من عين الابن وأبيه .. كان اللقاء مفعما بشتى الاحاسيس ! كان فيه حب.. وفرح .. وغفران .. ثم نهض عاصم بك وهمس فى أذن محسن ببضع كلمات ، فابتسم محسن على أثرها .. لقد ذكر له أن وداد ابنته تنتظر مقدمه ..

وأقام محسن فى بيت طاهر بك ليلتين حتى يسترد عافيته .. وعندما هم محسن بمغادرة بيت الحاكم ، طلبت «جميلة الرشيدى» مقابلته ، وراحت تشكره على معروفه يوم أن تكفل باخفاء «درة»..

وأبدت أسفها الكبير لما لحقه من آلام من جراء هذا المعروف ..

وعندئذ قال لها محسن :

ـ لا تتأسفى على شىء .. وانما أنا الذى أدين لك بالشكر ..

وعجبت جميلة وقالت :

ـ على ماذا ؟

ـ انت لاتدرين ما فعلت بى !.. لقد شعرت يوم أن وضعتينى محل ثقتك وسرك أنى رجل غير الرجل .. لقد كنت فى حاجة الى من يثق بى لكى أثق أنا بنفسى .. وتم ذلك على يديك ..

وخرج محسن من بيت الحاكم يحس فى نفسه طمأنينة وراحة لم يعهدهما من قبل ..

وعندما اقترب من بيت أبيه ، تذكر أخاه ابراهيم فانحدرت دمعتان كبيرتان على وجنتيه ..

كان يتمنى لو أن ابراهيم على قيد الحياة .. كان سيقدره ويعجب بمغامرته التى تحكى عنها كل رشيد ..

ولما دلف الى البيت جرى مهرولا نحو أمه ..

كانت لا تفارق الغرفة التى وقعت فيها عيناها لآخر مرة على ولديها قبل ليلة المعركة الاولى ! ووجدها واجمة تحدق بعينيها فى الفضاء نحو لا شىء ..

وما أن رأته حتى نهضت واقفة تضمه الى صدرها فى قوة وعطف والدموع تتساقط من عينيها ..

وبدا محسن يحدثها قائلا :

ـ أماه .. أستحلفك بالله ألا تبكى يا أماه ..

ولكنه فوجىء بأن أمه لا تعى من حديثه شيئا ..

ولكنها كانت تتفحص جسده بعينيها الدامعتين من أعلى رأسه الى أخمص قدميه ، كأنما تتحسس كيانه بنظراتها المتلهفة ..

ودخل والده فى هذه اللحظة وجذب محسن من يده .. واسر فى أذنه أمرا .. وعرف محسن ما أحاق بأمه من جراء المحن التى نزلت ببيتهم منذ مقدم الآثمين وقال له أبوه :

ـ لا تحزن يا بنى .. أنه قضاء الله ، ولو اطلعنا الغيب لاخترنا أمره ..

وهمهم محسن :

ـ تبا للآثمين .. ليتنى فعلت بهم أكثر مما استطعت ..

فأجاب أبوه :

ـ انك قمت يا بنى بما قدره الله لك .. ولقد انتقمت من مدافعهم .. انتقمت من المدفع الذى أتلف مسجد زغلول ، وأصاب أمك بالصمم والبكم ..

واتجه محسن بوجهه الى السماء .. وابتهل فى ايمان عميق :

ـ ربى..أعدها سيرتها الاولى فأنت على كل شىء قدير ..

الجلاء



١٧

ومضت الايام .. وجاء الصيف .. ثم رحل أو كاد ..

وجلس الشيخ « جاد الله » فى الصباح أمام ردهة الدار يتلقى أشعة الشمس الصحوة فوق جسده النحيل .. كان اليوم من أيام سبتمبر الرقيقة ..

وقد مضى على فرار الانجليز من « رشيد » أكثر من خمسة شهور .. ظلوا قابعين خلالها خلف أسوار الاسكندرية ..

وجاء رسول من حاكم البلدة يهمس فى أذن الشيخ بنبأ جعله يقفز من مقعده ويجرى مرحا داخل الدار ليذيع الامر متهللا على كل من فيه ..

لقد أبلغه الرسول أن غدا ١٩ سبتمبر سوف يجلو الانجليز عن الاسكندرية (١) ويرحلون نادمين الى جزرهم النائية ..

---

(١) (الرافعى) ومن غريب التواريخ أن الانجليز خرجوا فى سبتمبر ١٨٠٧ . ثم عادوا فى سبتمبر كذلك ١٨٨٢ ، وكانوا خرجوا فى مارس ١٨٠٣ ! . ثم عادوا فى مارس كذلك ١٨٠٧

وعمت الفرحة « رشيد » بأسرها ..

وأمسك الشيخ بابنه محسن يعانقه ويقبله .. وتساقطت دموع الفرح من عين أم محسن ، وقد وعت النبأ بقلبها ..

ودق الباب فى هذه اللحظة ..

فقد جاء أبو حسين ويوسف لزيارة محسن مهنئين بالنصر . وتحدثوا طويلا .. وعندما هم الرجلان بالخروج ابتسم «ابو حسين» وراح يغنى وهو يضحك :

« لا الريح يغطى مقامك ولا النيل بيطغى عليك »

واستغرق الجميع فى الضحك .. ثم انصرف الرجلان ..

وجلس محسن يعود بذكراه الى مغامرة الربوة . حقا لقد حلت بهم ليلتها « كرامة » الشيخ أبى مندور .. لقد أوشك محسن على موت محقق لولا أن التقى به الرجل المقنع مصادفة فى عرض الماء .

وهنا تذكر محسن شيئا كان قد نسيه فى غمرة الاحداث . لقد حدثه الرجل المقنع يومها عن أخيه ابراهيم .. فمن أين عرف المقنع أن « ابراهيم جاد الله » هو أخوه ؟!.

ودخل أبوه فى هذه اللحظة فقال له « محسن » :

ــ لقد تذكرت شيئا يحيرنى يا أبى ..

وراح محسن يقص على أبيه أمر الرجل المقنع وما حدثه به عن أخيه ابراهيم .

وقطب الشيخ جبينه وقال :

ـ هل تذكر ذلك حقا يا بنى ؟

ـ نعم يا أبى . وكأنه حدث بالامس .

ـ اذن أعد على وصف الرجل .

وبينما كان محسن مستغرقا فى الوصف ، نهض الشيخ فجأة واقفا وصاح :

ـ كفى .. كفى .. انه هو .. لقد حدثنى عنه كذلك أخوك ابراهيم عقب عودته من واقعة دمنهور .. فلقد التقى به هناك وجاءنى بعدها يحدثنى عنه حزينا واجما .. وكان حديثه مقتضبا . ولكنى أشعر أنه هو .. هو بعينه .

ـ من هو يا أبى الذى تقصده ؟

وصمت الشيخ ثم قال فى صوت متهدج :

ـ « جابر الرشيدى » .. والد « جميلة » ..

وعلت الدهشة وجه محسن .. ثم تمتم قائلا :

هذا يعنى أن « جميلة » كانت صادقة فيما حدثتنا به عن أمر الاذان ليلة المعركة وزيارة أبيها لها فى القبو .

ـ أظن أن هذا حق يا بنى .. فقد فهمت من المرحوم أخيك أن الرجل عزم أمره على أن يمضى حياته الباقية فى الصحراء يحارب

المعتدين الآثمين كافة ، فلقد جاء الى دمنهور ليحارب جنود الالفى ، بعد أن اشترك فى الحرب ضد الفرنسيين ، وبعد أن اشترك فى ثورة القاهرة ضد العثمانيين فى عام ١٨٠٥ (١)

ـ نعم . لقد سمعت مثل هذا الحديث من رجال « المقنع » الذين التقيت بهم فى الصحراء . لقد امتلأ قلبه حقدا على الآثمين بعد أن قتلوا زوجه وأطفاله ، وشردوا ابنته ، وشوهوا وجهه .

ـ حقا يا بنى ولذلك فانى اعتقد أن « جابر الرشيدى » هو الرجل المقنع الذى رأيته . ولقد جاء الى رشيد خفية ليفتك بالمعتدين . ولكن لماذا يا بنى لا يعود الرجل الى ابنته وأهله برشيد؟

فأجاب محسن وهو يفكر :

ـ من يدرى . لعله يخشى الا تستقيم حياته بين أهل البلدة بوجهه المشوه ، وقد تصدم ابنته بمنظره ..

ـ هذا جائز يا بنى ..

وذهب الشيخ « جاد الله » وابنه الى بيت الحاكم وقد اتفقا أن يقصا عليه الامر ..

---

(١) (الرافعى) ثورة القاهرة عام ١٨٠٥ ، والتى عزل فيها المصريون الوالى التركى ونصبوا بدلا منه « ممحدعلى » بعد ان اشتبكوا مع الجنود العثمانيين فى مذابح كثيرة ، واشتهرت هذه الثورة بدعاء المصريين .

يارب يا متجلى   اهلك العثمانلى

وعندما سمع الحاكم القصة .. استدعى جميلة كى تسمع بنفسها حديث الرجلين ..

وعرفت « جميلة » بالامر .. وبكت طويلا .. ثم رفعت رأسها وقالت :

— أريد أبى .. أريده على أى صورة .. وأى وجه .. انه أبى !

***

وتصادف فى هذا اليوم أن أمر الحاكم بارسال ثلة من الحامية لتشترك فى احتفال الإسكندرية بجلاء الاعداء . وكان قد كلف ابراهيم طاهر ابنه أن يرأس هذه الثلة . فأرسل يستدعيه ليكلفه بأمر جديد .

وحضر ابراهيم فحدثه أبوه قائلا :

— أرى أن تصطحب معك محسن جاد الله . وعليكم أن تبحثوا فى الصحراء عن الرجل المقنع ، وأن تصحبوه لمقابلتى .

وعندما هم الجميع بالخروج من أمام الحاكم التفتت اليه جميلة قائلة :

— بالله اسمح لى أن أذهب معهم ، فقد يرفض أبى أن يعود معهم . ولكنى قد اجعله يعدل عن رأيه ..

وقبل الحاكم ..

وفى اليوم التالى خرجت ثلة الفرسان . واتبعت الطريق الذى فر عليه رجال الاعداء منذ شهور يلحق بهم المقنع ..

وفى الطريق همس ابراهيم فى اذن جميلة ، وقد ثار حبها فى قلبه من جديد :

ـ هل تعديننى بالزواج يا جميلة .. بعد أن نجد اباك فى هذه المرة ؟

وابتسمت الفتاة وأحنت رأسها وقالت :

ـ أعدك ..

***

وفى فجر اليوم الباسم ١٩ سبتمبر ١٨٠٧ شهدت الاسكندرية طابورا طويلا من أسرى الاعداء يتجه نحو السفن المكتئبة الجاثمة عند الشاطىء ..

وعاد « فريزر » الى غرفته بالسفينة منكس الرأس .. وما أن احتوته الغرفة حتى تذكر الليلة الاولى التى قدموا فيها الى الاسكندرية . وانتابه الحزن ، فقد مات كل الرجال الذين جمعتهم تلك الليلة ، عدا الاميرال « لوس » . وحتى هذ الاخير وافته منيته بعد أن وصل « فريزر » الى السفينة بساعتين . كانت الحمى الخبيثة قد أصابته منذ ثلاث ليال . فلما مات تذكر « فريزر » حديث الرجل وأمنيته أن يدفن فى انجلترا . فأمر أن يحتفظ بجثته لكى تحمل الى وطنه . ولم يجد طبيب المركب قدراً يكفى من الكحول ليحفظ فيه جثة الرجل حتى يبلغوا انجلترا ، فاضطر أن يحتفظ بالجثة داخل دن من دنان الخمر .. فقد كان لديهم من

الخمر التى اصطحبوها للهو ، أكثر مما لديهم من الكحول الذى اصطحبوه للمحن .. فقد ظنـوا عند تدبير أمر حملتهم على مصر أنهم مقبلون على نزهة ممتعة !

وهكذا شاء القدر أيضا أن تتحقق الدعابة التى تهكم بها فريزر على « لوس » فى أول ليلة مشئومة من ليالى الحملة يوم أن دكت مدفعية « لوس » أبراج الاسكندرية ..

وردد الصدى الموجع حديث فريزر الذى فاه به منذ ستة أشهر ، وعادت اليه كلماته لتنفذ فى أذنه أليمة مؤسية :

ــ لا تجزع يا أميرال فمثلك لن يموت فى قبر بالبر ، بل يغلب على ظنى أنك ستموت فى دن من دنان الخمر ..!!

***

وراح « فريزر » يتذكر ما دار بتلك الليلة وهو يرمق بعينيه المقاعد الخاوية من حوله . وقال فى نفسه :

يا الهى هل كانت هناك روح هائمة من أرواح الفراعنة سمعتنا فى ذلك اليوم فأرسلت علينا اللعنة ؟!

واهتزت المركب فى هذه اللحظة ايذانا بالرحيل .. فسقطت صورة الاسد البريطانى من جديد فوق الجنرال .. يبدو أن اللعنة تأبى الا أن تودعه كما استقبلته ..

وعندما غادرت السفن الشاطىء أطلقت أبراج الاسـكندرية

مدافعها ابتهاجا بالنصر .. فقد حمل « فريزر » عصاه على كاهله ورحل ..

•••

وفى نفس الساعة اطلقت « رشـــيد » مدافع الحاميـــة التى استولت عليها ذات يوم من المعتدين الراحلين ..

وانبعثت الزغاريد والاغانى ..

النيـــــل دا حياتنــــا	محــــروس برشـــيد
ودافعنــــا عنــــه	ودفاعنـــــا مجيــــد
وحمتــــه أرواحنــــا	من شـــــر الغاشـــم
ولا قـــرب منـــــه	غاصــــب ولا ظـــالم

دا النيــــل دا حياتنـــــا

وتوافد المهنئون على بيت الحاكم . وعندما كان الشيخ « جاد الله » يجلس بينهم أقبل عليه رسول من بيته ، يسر فى أذنه أمرا ..

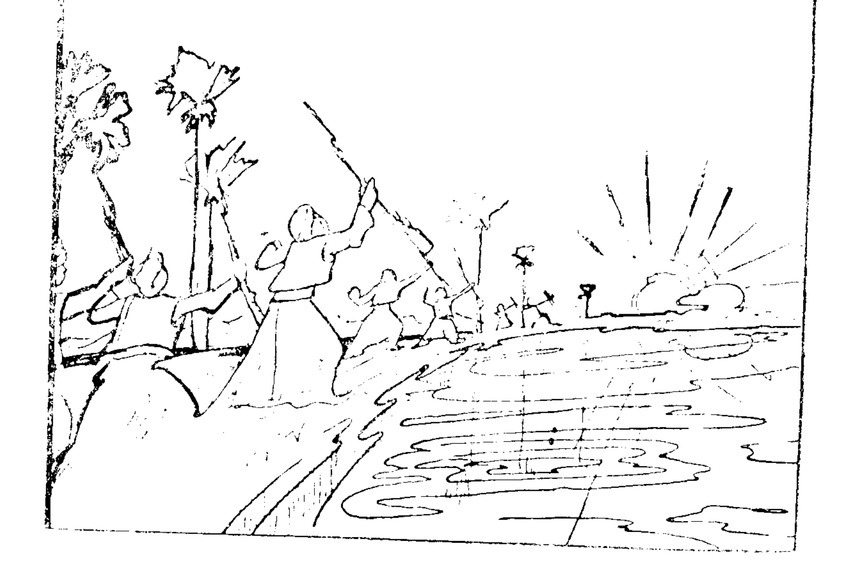
وبدا الايمان والبشر على وجه الرجل .. وشكر الله فى نفسه ..

فعندما انطلقت مدافع البلدة مدوية بالنصر ، انتفضت أم محسن جاد الله فى فراشها ، وكانت قد أحست شيئا قويا غامرا يغشى

نفسها فارتعد كل بدنها ، واختلج لسانها المعقود فى فمها الطاهر ، فهللت بالصياح : ودموع الفرح تتساقط من عينيها :

ـ انى أسمعها .. انى أسمعها ..

سبيل الحرّية





١٨

مرت الايام تباعا على هذه الاحداث الخالدة ..

وانطوى من التاريخ قرن وبضع قرن من الزمان ..

فلم يبق من الابنية التى شاهدت أحداث المعركة الا بقايا دور وأطلال حصن .. وأعمدة مسجد ..

ولم يبق من الجيل الذى قاوم النوازل الا بقايا أسر تحكى أطرافا من التاريخ غامضة مبهمة ..

•••

وفى يوم من أيام مايو ١٩٣٥ (١) جلس شاب صغير مخلص يقلب بين يديه صفحات من التاريخ ..

وصادف الشاب سطرا صغيرا وقعت عليه عيناه ، فتعلق به بصره ..

وانتقل الى قلبه معناه ، فتعلقت به نفسه .

وكان السطر يحكى قصة « رشيد » الخالدة ولكن فى كلمات قليلة مختصرة ...

•••

---

(١) جاء فى مجلة آخر ساعة (العدد ١٢٥٠) ان الرئيس جمال عبد الناصر بدأ يكتب الفصول الخمسة الاولى من قصته فى سبيل الحرية فى ١٠ مايو عام ١٩٣٥

وكانت الكلمات لا تزيد على أصابع اليد الواحدة ..
(حملة فريزر واندحارها أمام « رشيد ») ..

ولكن الكلمات القلائل كانت تحكى أمام الشاب قصصا كثيرة ..
كانت تحكى كيف يستطيع أفراد عزل أن يقهروا مدافع ثقيلة وعتادا ضخما ..
وكانت تحكى كيف تغلب فئة قليلة فئة كبيرة باذن الله ..
وكانت تحكى كيف يتغلب الخير والايمان فى النهاية على الاثم والعدوان ...

ooo

وعز على الشاب أن يختصر التاريخ نصر أمة ، وأن يوجز جهاد قوم ..

وكان فى قلب الشاب ألم ، وفى نفسه مرارة ..
فقد عاد المعتدون الذين طردتهم «رشيد» فى سبتمبر عام ١٨٠٧ ؛
ليحتلوا القطر فى سبتمبر عام ١٨٨٢ ..

وفى المرة الاولى مكثوا فى احتلالهم أكثر من نصف عام ..
وفى المرة الثانية مكثوا فى احتلالهم أكثر من نصف قرن ..
وراح يقرأ السطر من جديد .. ويعيد تلاوة كلماته المرة تلو المرة ..
كان السطر جميلا وعذبا .. ومعانيه تقطر أمنا وشهدا ..

وتمنى لو تعددت كلماته حتى تصبح صفحات ..
وتمنى لو يطول السطر حتى يصبح كتابا ..

***

وأمسك بين يديه قلما وورقا . .
وراح فى كل يوم يكتب فصلا ..
وفى اليوم الاول كتب الفصل الاول ..
وفى اليوم الثانى كتب الفصل الثانى ..
حتى كان اليوم الخامس فكتب الفصل الخامس ..
ولكن عندما جاء اليوم السادس قذف بالقلم من يده ، ورمى الورق جانبا ...
كان قد ألح عليه خاطر غريب ..
وراح يسر فى نفسه أمرا ..
ان الانجليز لن يطردهم القلم ، ولن يردهم الورق ..
وعزم أن يدبر أمرا ..
فبدلا من أن يدبر أسطورة ، أخذ يدبر شعبا وجيشا ..
وبدلا من أن يطـــردهم على صفحات الخيال ،
طردهم على صفحات الحقيقة ...

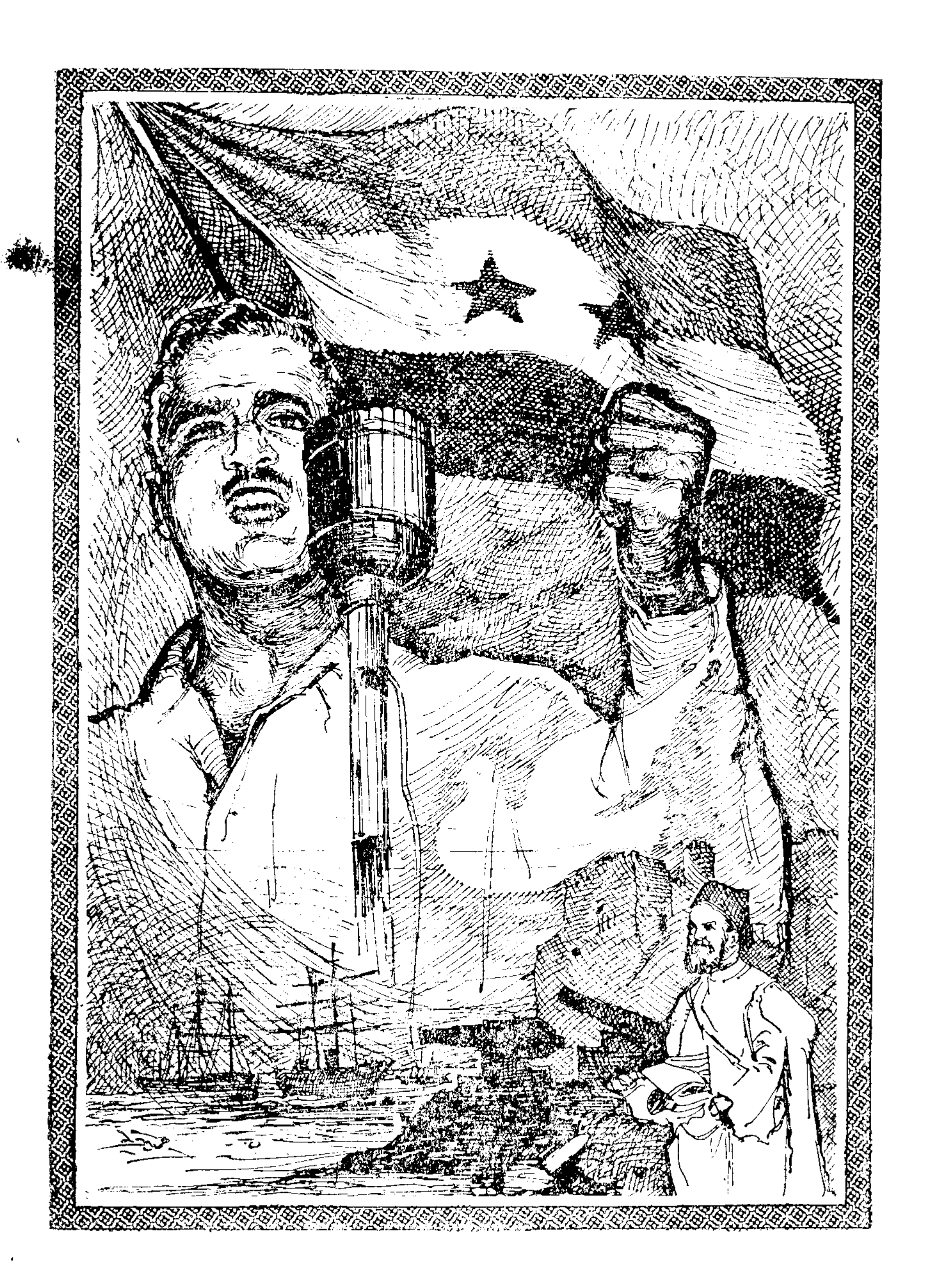
***

طردهم . ثم عادوا . ثم طردهم ..
وخلص الارض الطيبة من دنسهم واثمهم ..
والآن الا يحق لنا أن نذكر هذا البلد الامين .. عنـد طرف النهر الخالد ..
الذى دحر الانجليز فى عام ١٨٠٧ ..
ثم الهم رجلا بعد قرن ونصف قرن أن يقود أمة الى السبيل السوى ...

***

أما ذلك البلد الامين .. فهو رشيد ..
وأما ذلك الرجل الملهم .. فهو جمال عبد الناصر ..
وأما ذلك السبيل السوى .. فهو سبيل الحرية ...

(تمت)



الفهرس

فصول الرواية

تابع الفهرس

مطابع دار الكتاب العربى بمصر

حديث الشهر

معركة رشيد

عزيزى القارىء

الأحداث التاريخية الكبرى هى المعالم التى تعيش على هديها الشعوب، وذكراها هى الغذاء الروحى الذى يدفع الوطن قدما نحو المجد وتحقيق المثل العليا .

ولما كان لمعركة رشيد الخالدة (عام ١٨٠٧) الأثر الفعال فى ايقاظ الروح الوطنية عند الشعب وأفراده الذين أنار لهم هذا الحدث الوطنى طريق الجهاد لتحرير الوطن العربى من نير الاستعباد وذلة المستعمر فان السيد الرئيس جمال عبد الناصر كان فى مقدمة الذين تأثروا به عندما كان طالبا بالمدارس الثانوية اذ استلهم من أحداثه عملا أدبيا بدأه فى صورة قصة تحت عنوان « فى سبيل الحرية » ..

غير أن مجرى الحوادث بعد ذلك كان عنده أكبر من تسجيل أحاسيسه على الورق فترك القصة قبل أن تتم واتجه نحو الأحداث يعيش فيها بواقعه .

وقد رأى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى هذا العمل الأدبى الذى بدأه السيد الرئيس نواة صادقة تعبر عن أهداف أدبية ووطنية سامية . من أجل ذلك نظم المجلس مسابقة لتكملة هذا العمل الأدبى ، وقد تفضل السيد الرئيس بحضور حفل توزيع الجوائز على الفائزين فى المسابقة وكان الحفل فى نفس مكان المعركة وفى ميعاد ذكراها ١٩ سبتمبر ١٩٥٩ .

ونرجو أن تكون هذه المسابقة دعوة للكتاب العرب أن يفيدوا من أحداثنا التاريخية الكبرى فهى مصدر الالهام لكل من أراد أن ينتج فنا أو أدبا .

يوسف السباعى



في سبيل الحرية

تكملة القصة

التي بدأها السيد الرئيس

جمال عبد الناصر

فازت بالجائزة الأولى
في المسابقة التي
أجراها المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية

عدد ممتاز